بداية الخلق

للحافظ الإمام ابن كثير
المتوفى سنة ٧٧٤ هـ

دراسة وتحقيق
إبراهيم محمد الجمل

الناشر
دار الكتاب العربي

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م

دار الكتاب العربي

الرملة البيضاء ـ ملكارت سنتر ـ الطابق الرابع تلفون: ٨٠٠٨٣٢/٨٠٠٨١١/٨٠٥٤٧٨

تلكس: ٤٠١٣٩ L.E. كتاب برقيا: الكتاب ص.ب: ٥٧٦٩ ـ ١١ بيروت ـ لبنان

بداية الخلق

للحافظ الإمام ابن كثير

وبيانا لكم فيما تكلمت فيه ولا يهمني التكلم تعصبا لزيد ولا لعمرو
ولا طلبا من غير الله لأمر بل حماية للسنة ودفاعا عن الملة
الإبراهيمية الحنيفية وتبيينا لكل حق ثم بعد ذلك ليسأل الصادقين عن
صدقهم ويعرف المنافقين ومن يقولون ما لا يفعلون ويتصف
كل [illegible] متكلم بما تكلم به

بسم الله الرحمن الرحيم

دراسة وتقديم

الحمد لله رب العالمين . .

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . .

أما بعد . .

فإن الإنسان تهفو نفسه أحياناً ليعلم شيئاً عنها . . وتهفو تارة أخرى ليعلم شيئاً عن ماضيه . . لذا كانت قراءة التاريخ شيقة ما إذا كان كاتبه قادراً على التعبير والبيان والوصف والحكاية وأهم ما في التاريخ عند كثير من الناس تاريخ الانسانية ككل منذ بدايتها إلى نهايتها . .

وأهم ما في تاريخ الانسانية ككل تاريخ بدايتها وكيف كانت ؟ واطوارها ؟ .

نعم : عجيب أمر هذا الانسان الذي كان يلبس أوراق الشجر ويأكل بضعاً من الثمار . .

لقد حول الحياة الى ماكينات من العمل وساحات من الانتاج . .

لقد اشتغل القليل والكثير في الوصول إلى النتائج والابحاث حتى اكتشف

ودقق وعلم الكثير . .

ولكن نهاية علمه جهل - في رأيي - فليحدثنا عن الحقائق التي لابست وصاحبت خلق الدنيا . . نعم سيحدث ولكن سيتخوف أحياناً ويتراجع احياناً . . ويهتز مترنماً شاكاً في قول أو سارداً لآخر غير متبين له . .

إن بدايته بداية وجب عليه علمها ودراستها . . من منطلق قوله :

« قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الله الخلق »

وهذا هو عمل هذا الكتاب .

هذا الكتاب

هذا الكتاب جزء من كتاب « البداية والنهاية » للحافظ الامام عماد الدين أبي الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي النسب الدمشقي الدار المتوفى سنة ٧٧٤ هـ . بدأنا من الصفحة رقم « ٨ » إلى صفحة « ٩٩ » حسب طبعتي دار الفكر العربي بالقاهرة ، وطبعة بيروت . .

تحدث فيه ابن كثير رحمه الله ـ عن بدء الخلق كما ورد من خلال آيات الكتاب العزيز والسنة النبوية الشريفة وأقوال العلماء والنبهاء ورجال علم الهيئة .

فتحدث عن الكرسي واللوح المحفوظ وخلق السماوات والأرض وخلق البحار والأنهار ، وتحدث عن المجرة وقوس قزح ، ثم تحدث عن خلق الملائكة وصفاتها ثم تحدث عن خلق الجان وقصة الشيطان ثم تحدث عن خلق آدم عليه السلام ثم عن احتجاج آدم وموسى عليهما السلام ؛ ثم سرد قصة قابيل وهابيل ثم عرض لوفاة آدم عليه السلام ووصيته الى ابنه شيث .

* * *

وقد رأيت أن العلم الحديث اكتشف الكثير عن بداية خلق الأرض بما ظهر من أدوات الاكتشاف وعلوم السابقين والمحدثين . . فعرف ما يسمى بالساعة الذرية لتحديد عمر الأرض وخرجت كثير من النظريات التي تحدثت عن بداية خلق الدنيا . . فاذا ما قارنا نصاً « أصلاً » لإمام كابن كثير على ما لاح لنا من اكتشاف العلم الحديث لكان الخير الكثير .

عصر ابن كثير

كانت الدولة الخوارزمية بالمشرق أقوى دول المسلمين في هذا العصر ، ويليها دولة المماليك بمصر ، ودولة بن مرين بالمغرب الأقصى ، ولكن ملوك هذه الدول كانوا في غاية من الفساد والاستبداد ، حتى بلغ من تجبر ملوك الدولة الخوارزمية انهم كانوا لايخاطبهم كبير أو صغير إلا وهو جالس على الركبتين أمامهم ، وبلغ من فساد جلال الدين منكبرتي بن خوارزم شاه أنه كان له مملوك يحبه حباً شديداً فلما مات حزن عليه حزناً لم يسمع بمثله ، وأمر الناس بالخروج والنواح واللطم عليه ، وأبقاه من غير دفن ، فكان يستصحبه معه حيث سار ، ولا يقدر على فراقه بعد موته ، وكان لا يترك اللطم والبكاء عليه . وإذا قدم إليه طعام أرسل اليه منه ، فلا يجرؤ أحد أن يقول أنه ميت ، بل يحملون إليه الطعام ، ويقولون إنه يقبل الأرض ويقول إنه الآن أصلح مما كان .

* * *

وكانت حال المسلمين العلمية مثل حالتهم السياسية أو أكثر . فقد أخذوا في هذا القرن يكتفون بما وصلوا إليه في علومهم . ولا يهتمون إلا باختصار الكتب المبسوطة التي وضعها أسلافهم فيها ، وكان هذا لا يحصل إلا نادراً فيما قبل هذا القرن ، وممن عنى بهذا فيه أبو عمرو عثمان بن أبي كثير المعروف بابن الحاجب فله مختصرات في أصول الفقه والنحو غيرها ، وقد قصدوا بهذا أن

يسهلوا على طلاب العلوم الإحاطة بها ، فلا يكون همهم فيها إلا بشرح هذه المختصرات ، وقد ملكه الابتكار في العلوم وتأخرهم فيها عن غيرهم .

* * *

وزاد الطين بلة ما كان من زيادة عدائهم للعلوم الفلسفية . حتى إنه كان لا يشتغل بها في القرن إلا نفر منهم في حذر وخفية ، ولما كان من قوة نفوذ رجال الدين فيه ، وكذلك جهلة المتصوفة ، وقد حرم ابن الصلاح في هذا القرن المنطق والفلسفة ولم يمكن أحداً في دمشق من قراءة كتب هذه العلوم ، وكان الملوك يطيعونه في ذلك ، حتى إنه لما ولي الأشرف موسى ـ من الايوبيين ـ نادى في مدارس دمشق من ذكر غير التفسير والحديث والفقه أو تعرض لكلام الفلاسفة لنفيته .

وممن أوذي بسبب اشتغاله بالفلسفة في هذا القرن سيف الدين علي بن محمد الآمدي . وكان قد تصدر بالجامع الظاهر بالقاهرة مدة من الزمن ، فاشتهر أمره بين الناس ، واشتغل عليه الطلاب ، وانتفعوا به ، فحسده جماعة من الفقهاء ، وتعصبوا عليه . ونسبوه إلى فساد العقيدة لاشتغاله بعلوم الفلسفة وكتبوا محضراً يتضمن ذلك وصفوا فيه خطوطهم بما يستباح به دمه ، وكان منهم رجل فيه عقل ومعرفة ، فلما رأى تحاملهم عليه . كتب في المحضر حين حمل إليه ليكتب فيه مثلهم :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه   فالقوم أعداء له وخصوم .

ولما رأى سيف الدين تحاملهم عليه خرج من القاهرة مستخفياً الى الشام واستوطن مدينة حماه .

* * *

وكذلك كانت حال المسلمين في هذا العصر ،فقد زاد فيه جحودهم في العقائد على مذهب الأشعري ، وزاد فيه جحودهم في الفروع على المذاهب الأربعة المعروفة ، فكان من يحاول الخروج على مذهب الأشعري يعد خارجاً عن مذهب أهل السنة ، فيلقى من الأذى والاضطهاد ما لا يطاق ، وكذلك من

يحاول الخروج عن أحكام المذاهب الاربعة وكان ابن تيمية أول من حاول الخروج على مذهب الأشعري لأنه كان يؤثر عليه مذهب السلف من أهل السنة ، وكذلك كان لا يتقيد في بعض الأحكام بالمذاهب الفقهية الأربعة المشهورة .

وقد ناله في هذا ما ناله . ولكن ابن تيمية لم يخرج في الفروع إلا قليلاً عن الأحكام المعروفة لأنه كان مقلداً فيها لمذهب ابن حنبل .

* * *

وقد زاد ضعف الحركة العلمية في هذا العصر من نفوذ الصوفية فيه ، حتى زاد فيه خضوع العلماء لهم ، لأنهم كانوا أشعرية لا يرى جمهورهم شيئاً في تصوفهم ، لما سبق من تأثرهم في هذا بالغزالي ، وقد كان لعز الدين بن عبد السلام المتوفى سنة (هـ = ١٢٦٢ م) نفوذ كبير في هذا القرن ، حتى إن ملوكه كانوا يخشون بأسه ، وكان يلقب سلطان العلماء ، ومع هذا حضره أبو العباس المرسي من الصوفية وهو يدرس من « الرسالة القشيرية » في التصوف ، فقال له : تكلم على هذا الفصل ـ يعني الفصل الذي كان يدرس فيه ـ فأخذ أبو العباس يتكلم على طريقتهم ، وأخذ عز الدين يزحف في الحلقة ويقول : واسمعوا هذا الكلام الذي هو حديث عهد بربه » .

وفي ظل هذه الحالة نشأ العلامة الحافظ بن كثير ليضع تفسيره وكتابه الموسوعة التاريخية « البداية والنهاية » وغيرهما . . رحمه الله تعالى .

ابن كثير

هـو أبو الفـداء عماد الـدين اسماعيـل بن عمر بن كثـير بن اخو بن كثـير القرشي الدمشقي .

ولد بمجدل القرية من أعمال مدينة بصرى سنة ٧٠٠ هـ .

وتوفي في يوم الخميس ٢٦ من شعبان سنة ٧٧٤ هـ

قال ابن ناصر : كانت له جنازة مشهورة ، ودفن بوصيـة منه في قبـر شيخ الاسلام ابن تيمية بمقبرة الصوفية ، خارج باب النصر من دمشق . .

كذا قال الحافظ بـن حجر في الدر الكامنة . .

* * *

يقول عنه ابن حجر « اشتغل بالحديث مطالعة في متـونه ورجـاله ، وكـان كثير الاستحضار وحسن المفاكهة ، سـارت تصانيفـه في حياتـه وانتفع النـاس بها بعد وفاتـه ، ولم يكن على طـريق المحدثـين في تحصيل العـوالي وتمييز العـالي من النازل ونحو ذلك من متونهم وإنما هو من محدثي الفقهاء .

وأجاب السيوطي عن ذلك فقال : « العمدة في علم الحديث عـلى معرفـة صحيح الحديث وسقيمه وعلله واختلاف طرقه ورجاله واختلاف طرقـه ورجالـه جرحاً وتعديلاً » .

وأما العالي والنازل ونحو ذلك : فهو من الفضلات لا من الأصول المهمة » أ . هـ .

* * *

تتلمذ ابن كثير على يد أبي الحجاج المزي وتزوج بابنته ، وعلى يد كمال الدين بن قاضي شهبة ، وكان من انبه تلاميذ ابن تيمية رحمهما الله تعالى .

* * *

ومن مؤلفاته :

١ ـ البداية والنهاية .

٢ ـ التفسير .

٣ ـ الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث .

٤ ـ جامع المسانيد والسنن . قيل إنه سبع مجلدات . . موجود منه بعضها بدار الكتب المصرية بالقاهرة .

٥ ـ مسند الشيخين .

٦ ـ طبقات الشافعية .

٧ ـ رسالة في الجهاد .

٨ ـ كتاب « المقدمات »

٩ ـ شرح البخاري ـ ولم يكمله .

١٠ ـ كتاب « الأحكام » لم يكمله .

* * *

رحم الله شيخنا واسكنه فسيح جناته . .

مع العلم الحديث

القرآن دستور الاسلام ، ورسالته خاتمة الرسالات السماوية ، يدل التواتر الذي لا مرية فيه على أن القرآن الكريم هو الكتاب الذي أنزل بلسان عربي مبين على النبي الأمي العربي محمد بن عبد الله ، عليه صلوات الله وسلامه بجزيرة العرب منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان .

« جاء القرآن الكريم يدعو الى عبادة الخالق ـ جل وعلا ـ دون شريك ـ وإلى التصديق بالنبوة والبعث بعد الموت ، ومما لا شك فيه أن الصنعة دليل على الصانع ، وأن الصانع لا يعرف إلا من مشاهدة صنعته ، ولهذا جاء جانب كبير من آي الذكر الحكيم يتحدث عن خلق العالم المادي ويعرض على أنظار العقول نظام الأكوان وما فيها من دلائل العلم الواسع والقدرة العظيمة في الخلق والحكمة البالغة في التوجيه والرحمة الواسعة بالمخلوقات . ويطلب اليها التدبير والتأمل فيما يحكيه عنها ويحثها على النظر فيها والمعاينة لها ويجادل المعرضين وينعي عليهم إعراضهم وغفلتهم ، لأنهم إن فعلوا ما يؤمرون به مجردين عن الهوى فإنهم لا محالة واصلون منه إلى معرفته تعالى والتصديق برسالته . ومهتدون به إلى سبيل الأمن والسعادة »[1] .

* * *

(١) التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن . حنفي أحمد ـ دار المعارف (٣٤) ط ٣

خلق السماوات والأرض

يقول تعالى : ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ﴾[١] .

يجب فهم كلمة أيام على أنها مراحل ، بل لقد أدعى البعض القول بأنه إذا كانت نصوص القرآن الخاصة بالخلق قد قسمت مراحل الخلق في « أيام » فقد كان ذلك يهدف عن قصد الى استئناف ما كان الكل ، من يهود ومسيحين في فجر الاسلام ، يعتقد به وذلك تجنباً لمجابهة اعتقاد البشر .

وإذا تتبعت نصوص القرآن وجدت أن الكلمة المفردة انما تنحو إلى الدلالة على النهار أكثر منها مع فترة زمنية بين غروب الشمس وغروبها في اليوم التالي ، أما إذا جمعت فلا تعني فقط أيام أي وحدات تتكون كل منها من أربع وعشرين ساعة بل تعني أيضاً دهراً طويلاً أو فترة من الزمن غير محدودة وإن طالت . . وقال تعالى ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾[٢] .

فمن حقنا إذن أن نقبل ، فيما يتعلق بخلق العالم ، يقول القرآن ضمنا بفترات زمنية طويلة رقمها بالعدد ٦ . ولا شك أن العلم الحديث لم يسمح للناس بتقرير أن عدد المراحل المختلفة للعمليات المعقدة التي أدت إلى تشكل العالم هو ست مراحل ، ولكنه قد أثبت بشكل قاطع أنها فترات زمنية طويلة جداً ، تتضاءل إلى جانبها الأيام كما نفهمها وتصبح شيئاً تافهاً .

* * *

يقول تعالى ﴿ أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها متاعاً لكم ولأنعامكم »[٣] . « إن وصف نعم الله

---

(١) ٥٤ : سورة الاعراف

(٢) سورة المعارج : ٤

(٣) سورة النازعات : ٢٧ ـ ٣٣

الدنيوية على الناس ذلك الذي يعبر عنه القرآن ، في لغة تناسب مزارعاً أو بدوياً من شبه الجزيرة العربية ، مسبوق بدعوة للتأمل في خلق السماء . ولكن المرحلة التي حد فيها الله الأرض وأخصبها تأتي بالتحديد زمنياً بعد انجازه عملية توالي الليل والنهار . المذكور هنا إذن هو مجموعتان من الظاهرات جزء منها أرضي والآخر سماوي ، وقد حدث كلاهما في اتصال مع الآخر . وبالتالي فذكر هاتين المجموعتين من الظاهرات يعني أن الأرض كانت بالضرورة موجودة قبل أن تمد ، وعليه فقد كانت موجودة حين بنى الله السماوات . وينتج من هذا فكرة المصاحبة الزمنية لنمو كل من السماوات والأرض بشكل تتداخل فيها الظاهرتان . وبناء عليه فلا يجب أن نرى أي دلالة خاصة في إشارة النص القرآني الى خلق السماوات أو خلق السماوات قبل الأرض . فمواضع الكلمات لا تبين وجود ترتيب تحقق الخلق في اطاره ، إلا أن تكون تفضيلات أخرى معطاة »[1]

* * *

ثم تأملت آيات القرآن وجدت ﴿ ثم استوى إلى الأرض وهي دخان ﴾ [2] ، وقوله : ﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ﴾[3] تأمل فيه ثانية تجد :

أ ـ الدعوى بوجود كتلة غازية ذات جزئيات . فكذلك يجب تفسير كلمة « دخان » إذ يتكون الدخان عموماً من قوام غازي حيث تعلق به بشكل أكثر أو أقل ثبوتاً جزئيات دقيقة قد تنتمي إلى حالات إلمواد الصلبة أو حتى السائلة مع درجة في الحرارة قد تقل أو تكثر .

ب ـ الاشارة إلى عملية الفتق للكتلة الفريدة الأولى التي كانت عناصرها في البداية ملتحمة « يقول القرآن الرتق » ولنحدد جيداً أن « فتق » هو فعل القطع

---

(١) القرآن والتوراة والانجيل ـ دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة. وموريس بوكاي (١٩٢) ط دار المعارف .
(٢) سورة فصلت : ١١ .
(٣) سورة الانبياء : ٣٠

أو فك اللحام أو الفصل ، وأن « رتق » فعل اللحام ووصل العناصر بهدف تكوين كل .

هذا المفهوم من تفصيل الكل إلى أجزاء يتحدد بشكل دقيق في فقرات أخرى من القرآن ، وذلك عوالم متعددة . . إن الآية الأولى من أول سورة في القرآن بعد فاتحة ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ « هي » ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ .

ويتكرر تعبير « العالمين » عشرات من المرات في القرآن ، وكذلك السماوات فهي تذكر باعتبارها متعددة وليس ذلك فقط في صيغة الجمع بل تذكر أيضاً مع ترقيم رمزي وذلك بالاستعانة بالعدد ٧ .

الرقم ٧ مستخدم ٢٤ مرة في كل القرآن لتعدادات مختلفة ، وكثيراً ما يعني التعدد دون أن نعرف بشكل محدد سبب هذا الاستخدام بذلك المعنى . إن الرقم ٧ يبدو عند اليونان والرومان وكأن له نفس معنى التعدد غير المحدد ، وفي القرآن يعود الرقم ٧ على السماوات بمعناها الصرف سبع مرات ، كما يشير الرقم مرة واحدة بشكل ضمني إلى السماوات . كما يشير مرة واحدة إلى طرق السماء السبعة .

* * *

معطيات العلم الحديث عن تكوين الكون

النظام الشمسي :

تكون الأرض والكواكب التي تدور حول الشمس عالماً منظماً تبدو ابعاده متناهياً في الكبر بالنسبة لمقياسنا الانساني . إن الأرض ، على سبيل المثال ، تبعد عن الشمس بمقدار ١٥٠,٠٠٠,٠٠٠ كلم تقريباً . تلك مسافة شاسعة بالنسبة إلى الكائن الانساني ، ولكنها تصغر جداً إذا قورنت بمتوسط المسافة التي تفصل عن الشمس أكثر الكواكب بعداً عنها في المجموعة الشمسية أي كوكب « بلوتون » . وتقدر هذه المسافة بما يساوي المسافة بين الأرض والشمس أربعين

مرة تقريباً ، أي ما يساوي ٦ مليارات كلم بالتقريب . إن ضعف هذه المسافة ، أي ما يقارب ١٢ مليار كلم ، يمثل أكبر مسافة في النظام الشمسي . ويلزم الضوء الشمسي ست ساعات تقريباً لكي يصل إلى كوكب بلوتون برغم أن الضوء يقطع هذه المرحلة بسرعة رهيبة قدرها ٣٠٠,٠٠٠ كلم / ثانية . أما النجوم الكائنة على حدود العالم السماوي المعروف فتلزمها مليارات من السنوات ، حتى يصل ضوءها إلينا .

* * *

المجرات :

إن الشمس ، التي تعد الأرض أحد كواكبها التابعة مثلما تتبعها الكواكب الأخرى المحيطة بها ، ليست هي نفسها إلا عنصراً ضئيلاً من بين حوالي مائة مليار من النجوم تكون مجموعة تسمى بالمجرة ، وفي أمسية من أمسيات الصيف الجميلة نستطيع أن نرى الفضاء مرصعاً بهذه النجوم التي تكون ما يسمى بمجرة اللبن . هذه المجموعة من النجوم تمثل أبعاداً عظيمة . وإن الضوء يقطع كل المجموعة الشمسية في وحدات تقريبية من الساعات في حين يتطلب فرضاً قد يصل إلى ٩٠,٠٠٠ سنة حتى يصل بين أقصى طرفي مجموعة النجوم الأكثر تكاثفاً التي تكون مجرتنا .

والمجرة هذه ، برغم اتساعها العجيب ، ليست إلا عنصراً صغيراً من السماء . إذ توجد خارج مجرتنا تكتلات ضخمة من النجوم مماثلة لمجرة اللبن . ولقد إكتشفت هذه التكتلات منذ أكثر من خمسين عاماً تقريباً ، أي عندما استطاع الاستكشاف الفلكي أن يرتفع بأجهزة بصرية تساوي في كمالها تلك التي سمحت بانجاز تلسكوب جبل ويلسون بالولايات المتحدة . وبهذه الطريقة أمكن تمييز تكتلات من المجرات كثيرة العدد بشكل عجيب كما أمكن تمييز مجرات منعزلة تقع على مسافات هي من البعد بحيث استلزم ذلك خلق وحدة خاصة تتكون من سنوات ضوئية ، وتسمى هذه الوحدة « فرسخ نجمي »

وتتكـون من المسافـة التي يقطعهـا الضـوء في ٣،٢٦ سنـة بسـرعـة ٣٠٠،٠٠٠ كلم/ ثانية » [١] .

* * *

تكوين وتطور المجرات

لا يستطيع العلم أن يجيب إذا سأل ـ : ماذا كـان يوجـد في هذا الفضـاء الشاسع الاتسـاع الذي تحتله المجـرات الآن . . . ؟ .ـ إلا ابتداء من فتـرة ما في تطور الكون ولا يستطيع حساب المدة التي تفصلنا عنها .

وبـالنسبة لـلأزمنة السحيقـة التي يستطيـع العلم الحـديث أن يقـول رأيـه فيها ، فإن لـه كل الأسبـاب التي تدفعـه لاعتبار أن الكـون قد تشكـل من كتلة غازية تتكون رئيساً من غاز الهيدروجين وثانوياً من غـاز الهيليوم بطيء الـدورة ، وقد أنقسم هذا السـديم بعد ذلـك إلى أجزاء متعـددة ذات أبعاد وكتـل هي من الضخـامة ، بحيث يقـدرها علماء الفلك مـا يزيـد على الكتلة الحـاليـة للشمس بمقـدار يتراوح من مليـار إلى ١٠٠ مليـار مـرة تقـريبـاً . « تقـدر الكتلة الحـاليـة للشمس بما يزيـد على كتلة الأرض بـ ٣٠٠,٠٠٠ مـرة » . وتعطي هـذه الأرقام صورة لضخامة جزئيات هذه الكتلة الغازية الأولية التي ستولد منها المجرات .

«ويجيء بعـد ذلك تفتت آخـر يكون النجـوم . وعنـدئـذ تـظهـر عملية التكثيف التي يدخل فيها تأثير كل من قوى التجاذب « فهذه الأجرام تتحـرك كما تتزايد دورتها سرعة » والضغوط فيها الى طاقة حرارية . وتدخـل بعد ذلـك ردود الأفعـال الحـراريـة ـ النـوويـة Thermo — nuclesires وبالاقتراح تتكون ذرات ثقيلة من الـذرات الخفيفـة ، وبهـذا الشكـل يتحـول الهيـدروجـين إلى هـيـليـوم ثـم إلى كـربـون ثـم إلى ـأوكـسـجـين ثـم في الـنـهـايـة إلى الـفـلزات والـلافـلزات . هـكـذا حـيـاة الـنـجـوم ، ويـضـيـف عـلـم الفلك الحـديث النجوم بحسب مـرحلة التطور . والنجـوم تمـوت أيضـاً : فقـد لـوحظ في آخر مـرحلة تـطور بعض النجـوم انفجـار إلى الـداخـل Implasion

(١) المرجع السابق (١٦٩) .

تتحول النجوم بعده بالفعل إلى « جثث » .

إن الكـواكب ، والأرض على وجـه خـاص ، قـد أتت أيضـاً من عمليـة انفصال بدأت من الكوكب الأصلي أي السـديم الأولي . لقد بـطل الجدال منـذ فتـرة طـويلة في المعـطيـة التي تقـول بـأن الشمس قــد تكثفت في قلب السـديم الفريد ، وبأن الكواكب قد فعلت نفس الشيء داخل الأسـطوانة السـديمية التي كانت تحيط بها ، وهناك ملاحظة ذات أهمية بالنسبة لموضوع دراستنـا هنا : نعني أن تكون العناصر السماوية قبل الشمس وتكون العنصر الأرضي لم يترادفا هناك إذن تواز في التطور مع وحدانية في الأصل .

هنـا يعطينـا العلم معلومات عن العصـر الذي وقعت فيـه الأحـداث التي ذكرناها فإذا كنا نقدر بحـوالي ١٠ مليارات من السنـوات قدم مجـرتنا فـإن تكون النظام الشمسي بهذا الفرض ، قد وقـع بعد ذلـك بأكـثر قليلاً من ٥ مليـارات سنة . إن دراسة الاشعاع الذاتي الطبيعي تسمح بتاريخ عمر الأرض ولحظة تكون الشمس بـ ٤,٥ مليارات سنة بتحديد تقريبي يقل عن ١٠٠ مليـون عام حسب تقدير بعض العلماء ويثير هذا التعيـين الاعجاب ، فـإذا كانت المـائة مليـون من الأعـوام تمثـل زمنـاً طـويـلاً جـداً فنسبـة الخـطأ الأقصى الى الـزمن الكـلي هي ٠,١/٤,٥ أي ٢,٢٪ .

هكذا وصل إذن علماء الفلك إلى درجة عالية من المعرفة عن التطور العام لتكون النظام الشمسي ، ويمكن تلخيصه كما يلي : تكثف وانكماش مادة غازيـة في حالة دوران ، انفصال إلى أجزاء وضع الشمس والكواكب ، ومنها الأرض في أمـاكنها . إن معـطيات العلم عن السـديم الأولي وطريقـة انقسامـه إلى كمية لا حصر لها من نجوم مجتمعه في مجرات لا يسمح بـأقل شـك في شرعيـة في المفهوم القائل بتعدد العوالم .

لكن هذه المعلومات لا تأتي بأي نـوع من أنواع اليقـين بأنـه قد يـوجد في الكون ما قد يشبه الأرض من قريب أو بعيد .

* * *

تعدد العوالم :

ومع ذلك فيرى علماء الفلك أن وجود كواكب تشبه الأرض أمر شديد الاحتمال : ذلك بالرغم من أنه لم يعد أحد يفكر بشكل معقول في امكانية وجود ظروف عامة متشابهة لظروف الأرض على كوكب آخر داخل إطار المجموعة الشمسية . وإذا كان علينا أن نبحث عن تلك الظروف فيجب أن نبحث عنها خارج النظام الشمسي . فهناك من يعتبر أن وجود هذه الظروف خارج هذا النظام ممكن للأسباب التالية :

يرى البعض أن النصف المائة مليار نجم من مجرتنا لا بد أن يكون لها ، مثل الشمس ، نظامها الكوكبي . والحقيقة أن لهذه الخمسين ملياراً من النجوم دورتها البطيئة ، مثل الشمس . وتلك خاصية تدعو إلى الاعتقاد بوجود كواكب تابعة في فلكها .

إن البعد عن هذه النجوم هو من الكبر بحيث إنه لا يمكن ملاحظة هذه الكواكب التابعة التي يفترض وجودها وإن كان احتمال وجودها شديداً بالنظر إلى بعض صفات مدار يتميز بها أي نجم : إذ يدل التموج الخفيف في خط مدار النجم على وجود تابع كوكبي مرافق .

ولهذا السبب يعتقد بأن لنجمة بارنار Barnard رفيق كوكبي واحد ، على الأقل تفوق كتلة المشتري ، بل ربما كان لها تابعان . يقول ب . جيران P.Guerin. « كما هو واضح فالنظم الكوكبية منتشرة في الكون بكثرة شديدة . وليس النظام الشمسي والأرضي فريدين . . . » . ويستتبع ذلك « أن الحياة ، مثل الكواكب التي تأويها ـ منتشرة في كل الكون ، في كل مكان وجدت فيه الظروف الفيزيقية ـ الكيانية اللازمة لتفتحها وتطورها » [١] .

* * *

ينفصل السديم بعد تكثفه إلى أجزاء كونت في الأصل كتلاً مجرية .

---

(١) من دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة (١٧) ط دار المعارف بالقاهرة .

وتتجزأ هذه الكتـل الى نجوم صنعت منتجـات ثانـوية هي الكـواكب . . وهذه الانفصالات والجزئيات تترك بواقي تسمى المادة الكونية المنتشرة بين النجوم .

وقد توصف بالغبار . . أو بالادخنة . . وتتميـز بأنها شـديدة الخفـاء وبأنها تفوق المقاييس الفوتومترية في علم الفلك .

ورغم كثـرة ما قيـل عنها إلا أن هـذه المادة عـلى حـد تعليق بـواشـو . A Baichot أنها من شـأنها أن « تعـدل إلى حـد بعيـد الأفكـار الخـاصـة بتـطور الكون . . . » وعلى هذه المعطيات نستطيع أن نقابلها مع المعطيات القرآنية .

معطيات العلم ... ومعطيات القرآن

١ ـ أوضح العلم تشابك حدثي تكوين نجم « مثل الشمس » وتابعه أو واحد من توابعه « مثل الأرض » . ألا يتضح هذا التشابك في النص القرآني مثلما رأينا . . ؟ . .

٢ ـ إن المطابقة واضحة بين مفهوم السديم الأولي في العلم الحديث والدخان على حسب القرآن للدلالة على الحالة الغازية الغالبة للمادة التي كونت الكون في هذه المرحلة الأولى .

٣ ـ إن تعدد السماوات ، الذي عبر عنه القرآن بالرقم الرمزي « ٧ » والذي رأينا دلالته يتلقى من العلم الحديث تأكيداً له ، وذلك بفضل ملاحظات علماء الفلك عن نظم المجرات وعددها العظيم ٤٠ وعلى العكس فإن تعدد الكواكب التي تشبه أرضنا ـ على الأقل في بعض الجوانب ـ هو مفهوم مستخلص من النص القرآني ولكن لم يثبت العلم وجوده حتى الآن ومع ذلك فيرى المتخصصون أن هذا مفهوم معقول تماماً .

٤ ـ في القرآن تكون الأجرام على مراحل تكون الأرض وتطورها ، ولقد وقعت المراحل الخاصة بالأرض من رواية القرآن على أربع مراحل .

يقول « موريس بوكاي » ترى أيجب أن نرى في هذه المراحل معادلاً للعصور الجيولوجية التي يصفها العلم الحديث والتي ظهر الانسان في الرابع منها

كما نعلم . . . ؟ ليس هذا إلا مجرد فرض . . والله أعلم .

ولكن ينبغي ملاحظة أن تكوين الأجرام السماوية والأرض قد تطلب مرحلتين كما تشرح ذلك الآيات من ٩ إلى ١٢ من سورة فصلت . . ويعرفنا العلم بأننا إذا أخذنا كمثال « وهو المثال الوحيد الممكن اعتبار » تكوين الشمس ونتاجها الثانوي أي الأرض نجد أن العملية قد تمت من خلال تكاثف السديم الأولي وانفصالها . وذلك بالتحديد ما يعبر عنه القرآن بشكل صريح عندما يشير إلى العملية التي أنتجت ابتداء من « الدخان » السماوي «رتقاً ثم فتقاً » . اننا نسجل هنا التطابق الكامل بين المعطية القرآنية والمعطية العلمانية » .

وقال بعدها : « يمكن التقريب بين وجود الخلق الوسط بين « السماوات » و « الأرض » المعبر عنه في القرآن وبين اكتشاف جسور لمادة توجد خارج النظم الفلكية المنظمة . بناء على ذلك : فإذا كانت المسائل التي تطرحها رواية القرآن لم تتلق تماماً حتى يومنا توكيداً من المعطيات العلمية فإنه لا يوجد على أية حال أقل تعارض بين المعطيات القرآنية الخاصة بالخلق وبين المعارف الحديثة عن تكوين الكون .

ذلك أمر يستحق الالتفات إليه فيما يخص القرآن على حين قد ظهر بجلاء أن نص العهد القديم الذي نملك اليوم قد أعطى من هذه الأحداث معلومات غير مقبولة من وجهة النظر العلمية .

وكيف لا ندهش لذلك خاصة إذا علمنا أن النص الأكثر تفصيلية عن رواية الخلق في التوراة قد كتبت بأقلام كهنة عصر النفي إلى بابل ، وقد كان لهؤلاء الكهنة الأهداف التشريعية Légalisles التي حددناها أعلاه فاصطنعوا لتلك الأهداف رواية تتفق ونظراتهم اللاهوتية .

إن وجود هذا الاختلاف بين رواية التوراة والمعطيات القرآنية عن الخلق جدير بالتنويه أمام الاتهامات ـ وكلها عفوية ـ التي لم توفر على محمد ﷺ منذ بدايات الاسلام والتي تقول بأن محمداً ﷺ قد نقل روايات التوراة .

فيما يتعلق بموضوع الخلق فإن الاتهام لا يتمتع بأي أساس . كيف كان

يمكن لانسان ، منذ أربعة عشر قرناً ، أن يصحح إلى هذا الحد الرواية الشائعة في ذلك العصر وذلك باستبعاد أخطاء علمية وبالتصريح بمبادرته وحده بمعطيات أثبت العلم أخيراً صحتها في عصرنا [1] .

*　*　*

---

(١) دراسة في الكتب المقدسة (١٧٣) ط دار المعارف .

خلق الإنسان

المتأمل في هذا الخلق يشهد ويقر ويعترف . . خاصة في عصر كعصرنا بعد محاولات حاول فيها المحاولون انشاء خلقاً على أسس معلومة فلم يستطيعوا ذلك . . ولن يستطيعوا وجدير بالإنسان أن يبحث في خلقه وان ينظر في نفسه .

* * *

إن تكوين فكرة عن محتوى القرآن في هذا الموضوع ليس أمراً يسيراً . وتكمن الصعوبة الأولى في أن المقولات الخاصة بالتناسل الانساني متفرقة في كل الكتاب . . ولكن ليست هذه هي الصعوبة . فاكثر ما قد يضل الباحث . هنا أيضاً ، هو مشكلة المفردات .

فالواقع أن التغيرات لبعض الفقرات التي ما زالت منتشرة في عصرنا تعطي لرجال العلم الذين يقررونها فكرة مغلوطة تماماً عن الآيات الخاصة بهذا الموضوع ، على سبيل المثال نقول معظم هذه التفسيرات بتشكل الانسان ابتداء من « جلطة دم » أو ابتداء « من التخام » وهذه المقولة لا يقبلها مطلقاً العالم المتخصص في هذا الميدان . فلم يكن أصل الانسان أبداً شيئاً من هذا . وسنرى في الفقرة التي تعالج تعشيش البونية في رحم الأم الأسباب التي من أجلها يقع مستعربون بارزون في مثل هذه الأخطاء أو مفسرون أيضاً لافتقارهم إلى الثقافة العلمية .

مثل هذه الملاحظة تجعلنا نتصور الأهمية الكبرى لاقتران المعارف اللغوية والمعارف العلمية للوصول إلى ادراك معنى المقولات القرآنية عن التناسل . يركز القرآن التحولات المتوالية التي يمر بها الجنين في رحم الأم حتى نهاية الحمل .

﴿ يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم . الذي خلقك فسواك فعدلك . في أي صورة ما شاء ركبك ﴾ (١)

وقوله :

﴿ وقد خلقكم أطواراً ﴾ (٢) .

والى جانب هذه الملاحظة العامة يلفت نص القرآن الانتباه نحو نقاط عدة خاصة بالتناسل البشري ، ويمكن تصنيفها كما يلي :

١ ـ يتم الاخصاب بفضل كمية من سائل ضئيلة جداً .
٢ ـ تعشش البيضة المخصبة .
٤ ـ طبيعة السائل المخصب .
٤ ـ تطور الجنين .

الاخصاب :

فما لا شك فيه ان عملية الاخصاب تتم بفضل كمية من سائل ضئيلة جداً . . يكرر القرآن هذه المعلومة احد عشر مرة . مرة مستخدماً التعبير الذي نجده من قوله ﴿ خلق الانسان من نطفة ﴾ (٣) . "

نطفة : تأتي الكلمة من فعل يعني سال وتستخدم في الاشارة إلى ما يمكن أن يتبقى في دلو بعد تفريغه . وهي اذن تشير إلى كمية من سائل ضئيلة جداً ، ومن هنا كان المعنى الثاني « قطرة ماء » . المقصود هنا قطرة من مني . ذلك أن

---

(١) ٦ : ٨ : سورة الانفطار .
(٢) ١٤ : سورة نوح .
(٣) ٤ : سورة النحل .

نفس هذه الكلمة تقترن بكلمة مني في آية أخرى هي . قوله تعالى : ﴿ ألم يك نطفة من مني ﴾[1] .

وهناك آية أخرى تشير إلى أن النطفة المقصودة توضع في « قرار » وهذا القرار كما هو واضح تماماً يدل على الجهاز التناسلي ، وهي :

﴿ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ﴾ [2] .

وتعبر صفة « مكين » التي يصف بها النص القرار عن فكرة مكان متقرر وعلى أية حال فالمقصود هو المكان الذي ينمو فيه الانسان في جهاز الأم . ولكن ما يهم التأكيد عليه بوجه خاص هو تلك المعلومة عن الكمية الضئيلة جداً اللازمة للاخصاب وهي تتفق تماماً مع ما نعرف اليوم .

* * *

طبيعة السائل المخصب

ورد بأسماء منها : ـ

١ ـ مني .

٢ ـ ماء دافق .

٣ ـ ماء مهين .

٤ ـ امشاج .

ويرى كثير من المفسرين أن المقصود بهذا المخلوط هو عنصر الذكر ، وعنصر الانثى . وكذلك الأمر بالنسبة للكتاب القدماء إذ لم يكن لديهم أدنى فكرة عن فسيولوجيا الاخصاب ولا عن ظروف الاخصاب البيولوجية من ناحية الأنثى ، وكانوا يعتبرون أن الكلمة تشير لمجرد اجتماع عنصرين .

أما المفسرون المحدثون ، فإنهم يعدلون عن هذه الطريقة ويميزن هنا أن نقطة المني « ذات عناصر شتى » ولا يعطي بعضهم تفسيرات أخرى عن ذلك ولكن . . ما هي إذن عناصر المني المختلفة . . ؟

(١) ٣٧ : سورة القيامة .
(٢) ١٣ : سورة المؤمنون

فيشكل السائل المنوي من افرازات مختلفة تأتي من الغدد التالية :

أ ـ الخصيتان « يحتوي افراز الغدة التناسلية للذكر على الحيوانات المنوية ، وهي خلايا مستطيلة مزودة بهدب طويل ، وتسبح في سائل مصلي .

ب ـ الحويصلات المنوية : تخزن هذه الأعضاء الحيوانات المنوية وتقع على مقربة من البروستاتا وتفرز افرازاً خاصاً لكنه لا يحتوي على عناصر مخصبة .

ج ـ البروستاتا : وتفرز سائلاً يعطي للسائل المنوي قوامه الغليظ ورائحته الخاصة .

٢ ـ الغدد الملحقة بالمسالك البولية : وهي الغدد المعروفة باسم كوبر Cooper أو ميري Mery وتفرز سائلاً جارياً وغدد ليترى Litre وتفرز مخاطاً .

* * *

تلك هي أصول هذه المخاليط « الأمشاج » التي يبدو فعلاً أن القرآن يتحدث عنها .

بل هناك اكثر من هذا : إذا كان القرآن يتحدث عن سائل مخصب يتكون من عناصر هذا السائل . وذلك هو معنى الآية ٨ من سورة السجدة **٣٢** :

﴿ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ .

سلالة : تدل الكلمة على شيء مستخرج أو خرج من شيء آخر ، أو هو أحسن جزء من شيء ، وأيا كانت طريقة التفسير فالمقصود هو جزء من كل . .

* * *

إن ما يتسبب في اخصاب البويضة ويكفل التناسل هو خلية شديدة الاستطالة يقاس طولها بمقياس ١ : ١٠،٠٠٠ ملم ، إن عنصراً واحداً من بين عشرات الملايين الصادرة من رجل في ظروف عادية يصل الى الولوج في البويضة ، ويتبقى عدد كبير في الطريق ولا ينجح في قطع المسافة التي تؤدي من المهبل إلى البويضة عبر تجويف الرحم والبوق « بوق فالوب » . إنه إذن جزء

متناه في الصغر صادر من السائل معقد التركيب هو الذي يحقق نشاطه . فكيف لا ندهش أمام الاتفاق بين العنصر القرآني والمعرفة العلمية التي اكتسبناها من هذه الظاهرات .

* * *

البويضة في جهاز الانثى التناسلي

قال تعالى :﴿ ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى . . . ﴾ (1) .

تعشش البويضة بعد أن تخصب داخل الرحم . . ويتحقق ذلك بواسطة امتدادات ، وكما لو كانت بذوراً تضرب في الأرض ، فإنها تنهل من جدار العضو ما يلزم لنمو الجنين . وهذه الامتدادات هي التي تجعل البويضة تتعلق بالرحم . ويرجع تاريخ معرفتها إلى العصور الحديثة ويشير القرآن خمس مرات الى هذا التعلق : أولاً في الآيتين ١ ، ٢ من سورة العلق ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق ﴾ .

علق : تشير الكلمة إلى ما يعلق « ما يتشبث بشيء» ذلك هو المعنى الأول . وجلطة الدم معنى مشتق من هذا المعنى .

وكثيراً ما نراه في التفاسير ، غير أن هذا أمر غير صحيح ينبغي التحذير منه .

فالإنسان لا يمر مطلقاً بمرحلة جلطة الدم . وينطبق نفس الأمر على تفسير آخر وهو « التصاق » . تلك لفظة غير صحيحة ، والمعنى الأول للكلمة ، أي شيء يعلق ويتشبث ، هو المعنى الذي يستجيب تماماً للواقع الثابت اليوم .

ويذكر القرآن تلك المعلومة في أربع آيات أخرى تتحدث عن التحولات المتوالية ابتداء من قطرة المني حتى نهاية الحمل .

---

(١) سورة الحج .

﴿ فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة . . ﴾ (١)

﴿ ثم خلقنا النطفة علقة . . . ﴾ (٢)

﴿ هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة . . . ﴾ (٣)

﴿ ألم يك نطفة من مني يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوّى . . ﴾ (٤)

يصف القرآن العضو الذي يقع الحمل به بكلمة في العربية تدل اليوم على الرحم كما رأينا ذلك .

* * *

تطور الجنين

تطور الجنين في الرحم كما يصفه القرآن يستجيب تماماً لما نعرف اليوم عن بعض مراحل تطور الجنين ، ولا يحتوي هذا الوصف على أي مقولة يستطيع العلم الحديث أن ينفذها .

إذ يقول القرآن إن الجنين ، بعد مرحلة التشبث ، وهو التعبير الذي رأينا إلى اي حد هو مؤسس على الحقيقة ، يمر بمرحلة « المضغة » أي اللحم الممضوغ » ثم يظهر بعد ذلك النسيج العظمي الذي يغلف باللحم ويعني لحماً نضراً .

﴿ ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً . . ﴾ (٥) .

المضغة : تشير إلى ما يشبه اللحم الممضوغ ، أما اللحم فيعني اللحم النضر . ويستحق هذا التمييز الالتفات . إذ أن الجنين في مرحلة أولى من تطوره كتلة صغيرة تبدو فعلاً للعين المجردة كلحم ممضوغ ، ويتطور الهيكل العظمى في

---

(١) ٥ : سورة الحج .

(٢) ١٤ : سورة المؤمنون .

(٣) ٦٧ : سورة غافر

(٤) ٣٧ ، ٣٨ : سورة القيامة

(٥) ١٤ : سورة المؤمنون .

هـذه الكتلة . وبعد أن تشكـل العظام تتغـطى بالعضـلات : وعـلى العضـلات توافق كلمة لحم .

والمعـروف أن بعض الأجـزاء ، في اثنـاء مـدة تـطور الجنـين ، تبـدو غـير متنـاسبة مـع ما سيكـون عليه الفـرد في المستقبل عـلى حين تـظل أجـزاء أخـرى متناسبة . ذلك هو معنى كلمـة « فخلق » هي تعني مشكل بنسب وقـد جاءت في الآية ٥ من سورة الحج لتشير إلى هذه الظاهرة .

﴿ فإنا خلقناكم . . ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ﴾ .

ويذكر القرآن أيضاً ظهور الحواس والأحشاء .

﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة . . ﴾ (١) .

﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى . . من نطفة إذا تُمنى ﴾ (٢) .

وكما قلنا فلا بد من مقارنة كل من هذه المقولات القرآنيـة بالمعلومـات التي ثبتت في العصـر الحديث ، إن تـوافق المقولات القـرآنية مـع المعلومات الحـديثة يتضح . ولكن من المهم أيضاً مقابلتها بالمعتقدات العامة في هذا الموضـوع والتي كانت سائدة في عصر تنـزيل القـرآن حتى ندرك إلى أي حـد كـان معاصـرو هذه الفتـرة بعيدين عن حيـازة معلومـات تشبـه تلك التي يعـرضهـا القـرآن في هـذه المسـائل . وليس هنـاك أدنى شك في أن هؤلاء المعـاصـرين لم يعـرفـوا في ذلـك العصر تفسير هـذا الوحي مثلما نـدركه نحن اليـوم ، ذلك أن معـطيات المعـرفة الحديثة تعيننا على تفسيره . الواقع أن المتخصصين لم يكتسبوا معرفـة واضحة الى حد ما عن هذه المسائل الا خلال القرن التاسع عشر .

فطيلة كل القرون الوسطى كانت الخرافات والأفكار النظرية التي لا تتمتع بأي أساس هي قاعدة مختلف المعتقدات في هذا الموضوع ، بل لقد سـادت أيضاً لقرون عديدة حتى بعد العصور الوسـطى . إن المرحلة الحـاسمة في تـاريخ علم

---

(١) ٩ : سورة السجدة .

(٢) ٤٥ : ٤٦ : سورة النجم .

الأجنة بدأت بدعوى هارفي Harvey الذي قـال ، في عام ١٦٥١ إن كـل شيء حي يأتي أولاً من بويضة ، وان الجنين يتخلق تدريجياً جـزءاً بعد جـزء ، في هذا العصر كان العلم الوليد قد أفيد كثيراً ، في الموضوع المعنى هنا ، باختراع المجهر الذي كان قـد تم في عصر سـابق بقليل ، وبـرغم ذلك فقـد كان النقـاش دائراً حـول دوري كل من البـويضة والحيـوان المنوي ، وكـان بـوفـون Buffon عـالم الطبيعيات الكبير ينتمي إلى أشباع فكرة البويضة وكان من فيهم أيضـاً Bonnet الذي كان يدافع عن نظرية اندماج البـذور القاتلة بـأن مبيض حواء ، أو الجنس البشري ، كان يحتوي على بذور كل الكائنات الانسانية متداخلة كل في الآخر ، وقد حظي هذا الغرض ببعض التأييدات في القرن الثامن عشر .

عـرف الناس القـرآن بما يـربو عـلى ألف عام من قبـل هذا العصـر الذي كانت المعتقدات الوهمية تسوده ، ان مقومات القرآن عن التنـاسل البشـري تعبر في ألفاظ بسيطة عن حقائق أولى إنقضت مئات من السنوات لمعرفتها .

التطور

جاء العلم بأشياء غريبة وبأمور يغيب عندها العقل ويتوقف أمامها ملياً . . وسنحاول جاهدين أن نقف على هذا المذهب .

* * *

« فقد اقترن مذهب التطور في النصف الأخير من القرن التاسع عشر باسمين عظيمين ، هما اسم الفرد رسل والاس واسم شارل داروين ،وذاعت شهرة داروين كما يقال مذهب التطور أو مذهب النشوء والارتقاء ، وقد عدل أخيراً عن تسمية المذهب بالنشوء والارتقاء وبقيت الداروينية غالبة عليه .

« ولقد هوجم المذهب كثيراً باسم الدين ، وجعله بعضهم مرادفاً للالحاد والمادية ومع هذا لم يكن والاس ولا داروين ملحدين معطلين ، وكان والاس شديد الايمان بالله ، خامرته الشكوك في الديانة التقليدية ولم تخامره في الايمان بالله وبحكمته ، ومن كلامه ما يستدل به على تصديقه المعجزات وخلود الإنسان .

أما داروين فلم يزعم قط أن ثبوت التطور ينفي وجود الله ، ولم يقل قط إن التطور يفسر خلق الحياة ، وغاية ما ذهب إليه أن التطور يفسر خلق الحياة ، وغاية ما ذهب اليه أن التطور يفسر تعدد الأنواع الحيوانية والنباتية ، وفي ختام كتابه عن أصل الأنواع يقول : إن الأنواع ترجع في أصولها إلى بضعة أنواع

تفرعت على جرثومة الحياة التي أنشأها الخلاق »[1]

* * *

وإذا قوبلت وجهة النظر العلمية بوجهة النظر الدينية في القرن العشرين لم تختلف الوجهتان في هذا المعنى .

ولا نريد بذلك أن المتدينين يقررون صحة مذهب التطور على علاته ، ولكننا نريد أنهم يقررون أن تصديقه لا يناقض التصديق بوجود الله ، فلا يلزم عندهم أن يكفر بالدين كل من قال بتسلسل الأنواع الحية من أصل واحد أو بضعة أصول ، ومنهم من يعتبر العوامل الطبيعية التي فعلت فعلها في هذا التسلسل آية من آيات التدبير والتنظيم . وقد جاء في الموسوعة الكاثوليكية في مادة الخلق Greation أن حقائق العلم وحقائق الوحي في هذا الموضوع لا تتناقضان .

وقال اللاهوتيون أصحاب كتاب العلم وما فوق الطبيعية :

Science and the Super natural

إن العلل الثانوية التي تبدو في أعمال الطبيعة لا تبطل العلة الأولى التي تنتهي إليها جميع العلل وتقف عندها جميع المقاصد والغايات .

وقال اللاهوتي اليسوعي الأب نابرو باور Knaberbuer فيما روته عنه الموسوعة الكاثوليكية : « إن أصول الاعتقاد التي اشتمل عليها سفر التكوين تبقى ثابتة غير محسوسة ولو فسرنا الأحوال التي نشأت فيها الأنواع المختلفة وفاقاً لقواعد التطور » .

* * *

ونخلص مما تقدم إلى بيان الفرق بين التاسع عشر والقرن العشرين في موقف العلم من الدين حول مذهب التطور أو مذهب داروين والآراء الداروينية على اختلافها .

(١) عقائد المفكرين في القرن العشرين للاستاذ العقاد (٥٧) ط م الانجلو المصرية .

فالنشوئيون في القرن العشرين لا يستندون إلى التطور في انكار الدين واثبات التعطيل والإلحاد ، ومن كان منهم معطلاً منكراً فليس له سند مسلم من مذهب داروين . ولا من كلام داروين نفسه عن عقائده وترجيحاته .

والدينيون في القرن العشرين لا يقيمون أصول الدين حجة على بطلان مذهب التطور ولا يقولون بالتناقض بين الايمان والعلم من هذا الباب .

وإذا رجعنا إلى مكان مذهب التطور من العلم لم نجد من يحسبه علماً قاطعاً مفروغاً من أصوله وفروعه ، وأكبر أنصاره لا يدعى له أكثر من أنه صحيح في بعض ملاحظاته ومقارناته ، ويجوز بعد ذلك أن يكون التطور قد حصل في جهات متعددة لا من في جهة واحدة ، وأن يكون ملازماً للارتقاء حيناً ومقارناته ، ويجوز بعد ذلك أن يكون التطور قد حصل في جهات متعددة لا من جهة واحدة ، وأن يكون ملازماً للأرتقاء حيناً ومقارناً للنكسة حيناً آخر ، وإن كانت شواهد الارتقاء أكثر من ظواهر النكسات .

وخفت اليوم تلك الدفعة الأولى من جانب النشوئيين وجانب الدينيين ، فتقاربت شقة العلم وشقة العقيدة في أمر الخلق والتطور ، وجاء القرن العشرون بعد القرن التاسع عشر بنظرة جديدة في هذه المسألة التي أوشكت أن تغطي على مسألة دوران الأرض ومسألة القوانين الطبيعية في دعواها الأولى حيال العقائد الدينية ، فإن لم تكن مذهب التطور آية من آيات العقيدة فليس هو على التحقيق برهاناً على بطلانها ، وثبت اليوم أن الذين حاربوا الدين باسم التطور والذين حاربوا التطور باسم الدين كلهم في الخطأ والادعاء سوّاء .

وربما كان لسخف الكبرياء نصيب كنصيب الجهل في مقاومة القول بالتطور ، فإن الأكثرين أنفوا أن يكون آباؤهم وأجدادهم قردة ، وظنوا أن تصديق التطور يوجب لهذ النسب لا محالة على كل فرد من أفراد السلالة الآدمية .

ولا مسوغ لهذا السخف اليوم إن كان للسخف مسوغ في حين من الأحيان ، فليس باللازم في مذهب التطور أن ينتمي كل انسان حديث إلى قرد

عريق ، وما من نشوئي إلا وهو يلتمس حلقة بين النوعين ، ويجعل للإنسان نسباً مستقلاً في أصله عن غيره من الأنواع العليا بين الحيوانات . . ، هكذا ذهب الأستاذ العقاد في « عقائد المفكرين في القرن العشرين »وهي أمام الباحثين حتى الآن . أرجو أن يصل الانسان إلى نضج يؤهله للحكم والفصل فيها حكماً وفصلاً يتفق عليه أكثرهم وتقبله أكثر العقول .

* * *

متى بدأت الحياة في الملكوت ؟

مضى على نشوء الحياة في الملكوت ما يقرب من سبعة وعشرين بليوناً من السنين . .

وقد قال بعض العلماء « إن حياة الانسان بدأ نشؤوها في الملكوت منذ سبعة وعشرين بليوناً من السنين وسوف تظل الحياة الانسانية مستمرة في الملكوت تسعة بلايين من السنين تقريباً وتزول خلالها حياة الانسان بأرض لا حصر لعددها منتشرة في الملكوت وإلى غير حدود ، وهكذا إلى يوم القيامة »[1] أ . هـ .

ولا نستطيع أن نقطع بذلك ولا نستطيع تكذيبها . . والله تعالى أعلم .

---

(١) العرش العظيم ـ للاستاذ زكريا علي راشد . م مصطفى الحلبي سنة ١٩٧٠ م

بداية الخلق

تحـدث ابن كثير ـ رحمـه الله ـ في بدايـة هـذا الكتـاب ـ عن خلق صفـة العرش والكرسي واللوح المحفوظ . . وهي أمور قبل البدء بالطبع . .

ثم تحدث عن خلق السماء والنجوم والكواكب وخلق الأرض ومدتها . ثم تحدث عن خلق الاشجار وعدها وخلق الأنهار وعدها أيضاً . . ثم ناقش المجـرة وقوس قزح . .

ثم تحدث العلامة عن الملائكة وصفاتهم وأفاض فيها . تحدث عن جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت . .

ثم تحدث عن خلق آدم وسرد الآيات والأحاديث الواردة في خلقه .

وسلك ابن كثير في البحث العلمي مسلك أصحاب التفسير بالمـأثور وهـو رائد من رواد هذا المجال .

يعرض الآيات ثم الأحاديث ثم الآثار ويخرج برأيه أو يذكر رأي الآخرين ويختار منهم ما يتفق مع الصحيح كما يراه هو . .

* * *

هذا وقد وصلت إلى خلق آدم . . فـانتخبت من الآيات بعضهـا وأخترت بعض الأحـاديث حتى لا أطيل عـلى الطارىء وتـوخيت أن تكون شـاملة للمعنى

موصلة إلى المراد . . .

وكذلك أعرضنا عن بعض الأمور والمسائل التي أثبت العلم بطلانها وكانت سائدة في هذا العصر ـ عصر كتابة الكتاب . .

*　　*　　*

المنهج في التحقيق

١ ـ نسخت الأصل بعد تصحيحه وتهذيبه واختيار ما يناسب موضوع الكتاب والاعراض عن الآخر .

٢ ـ خرجت الأحاديث والآيات الواردة في الكتاب .

٣ ـ ترجمت للأعلام الواردة في الكتاب .

٤ ـ ترجمت للبلدان والمواضع التي وردت في الكتاب .

٥ ـ بينت بعض الألفاظ الغامضة والجمل المبهمة الواردة في الأصل .

٦ ـ علقت على ما استحق من تعليق .

٧ ـ قارنت بين ما ورد في الأصل وبين ما جاء في العلم الحديث فوضعته في هامشه .

٨ ـ أعددت دراسة علمية عن الكتاب وقابلت بين ما جاء في الكتاب وبين معطيات العلم الحديث من منظور اسلامي ووصفتها في الدراسة والتقديم .

٩ ـ اخترت العنوان المناسب لروح العصر « بداية الخلق » أسأل الله أن ينفع به وجزى الله ناشره خير الجزاء ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

ابراهيم محمد الجمل

القاهرة في ١٣ من اكتوبر ١٤٠٤ م

بداية الخلق

للحافظ الإمام ابن كثير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الأول والآخر ، الباطن الظاهر ، الذي هو بكل شيء عليم ، الأول فليس قبله شيء ، والآخر فليس بعده شيء ، والظاهر فليس فوقه شيء الباطن فليس دونه شيء ، الأزلي القديم الذي لم يزل موجوداً بصفات الكمال ، ولا يزال دائماً مستمراً باقياً سرمدياً بلا انقضاء ولا انفصال ولا زوال ، يعلم دبيب النملة السوداء ، على الصخرة الصماء ، في الليلة الظلماء ، وعدد الرمال . وهو العلي الكبير المتعال ، العلي العظيم الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً . . أما بعد . .

فهذا كتاب أذكر فيه بعون الله وحسن توفيقه ما يسره الله تعالى بحوله وقوته من ذكر مبدأ المخلوقات : من خلق العرش والكرسي والسماوات والأرضين وما فيهن وما بينهن من الملائكة والجان والشياطين وكيفية خلق آدم عليه السلام .

* * *

﴿ فصل ﴾

قال الله تعالى في كتابه العزيز ﴿ الله خالق كل شيء وهو على كل شيء

وكيل ﴾[1] فكل ما سواه تعالى فهو مخلوق له : مربوب مدثر[2] ، مكون بعد أن لم يكن . . محدث بعد عدمه . .

فالعرش الذي هو سقف المخلوقات الى ما تحت الثرى ، وما بين ذلك من جامد وناطق الجميع خلقه ، وملكه وعبيده وتحت قهره وقدرته ، وتحت تصريفه ومشيئته ﴿ خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام . ثم استوى على العرش . يعلم ما يلج في الأرض ، وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير ﴾[3] .

وقد أجمع العلماء قاطبة لا يشك في ذلك مسلم أن الله خلق السماوات والأرض ، وما بينهما في ستة أيام كما دل عليه القرآن الكريم . . فاختلفوا في هذه الأيام أهي كأيامنا هذه . . أو كل يوم كألف سنة مما تعدون ؟

على قولين كما بينا ذلك في التفسير[4] وسنتعرض لايراده في موضعه .

واختلفوا هل كان قبل خلق السماوات والأرض شيء ومخلوق قبلهما . فذهب طوائف من المتكلمين إلى أنه لم يكن قبلهما شيء وأنهما خلقتا من العدم المحصن .

وقال آخرون بل كان قبل السماوات والأرض مخلوقات أخر لقوله ﴿ وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ﴾ الآية[5] .

وفي حديث عمران بن حصين كما سيأتي « كان الله ولم يكن قبله شيء . . وكان عرشه على الماء وكتب من الذكر كل شيء ثم خلق السماوات والأرض »[6] أ . هـ .

---

(١) سورة الزمر ـ ٦٢ .
(٢) مدثر : أي مُحتَوَى عليه ، فدثر بالدثار :تلفف بكساء ، ومدثر أي يتمكن منه .
(٣) سورة الحديد ـ ٤
(٤) راجع تفسير ابن كثير المجلد الرابع عند تفسيره لأول سورة الحديد . آية (٤)
(٥) سورة هود ٧
(٦) الحديث سيأتي كاملاً . .

وقال الامام أحمد بن حنبل : حدثنا بهز حدثنا حماد بن سلمة حدثنا أبو يعلى عن عطاء عن وكيع بن حدس عن عمه أبي رزين لقيط بن عامر العقيلي أنه قال : « يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق السماوات والأرض ؟ قال : كان في عماد[1] ما فوقه هواء وما تحته هواء . . ثم خلق عرشه على الماء » أ . هـ .

ورواه عن يزيد بن هارون عن حماد بن سلمة بن . .

ولفظة « أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ » وباقيه سواء . . وأخرجه الترمذي عن أحمد بن منيع ، وابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة ومحمد بن الصباح ثلاثتهم عن يزيد بن هارون . . وقال الترمذي . . حسن . .

واختلف هؤلاء في أيها خلق أولاً ؟ فقال قائلون : خلق القلم [٢] قبل هذه الأشياء كلها . . وهذا اختبار ابن جرير ، وابن الجوزي ، وغيرهما . . قال ابن جرير : وبعد القلم السحاب الرقيق واحتجوا بالحديث الذي رواه الامام أحمد وأبو داود والترمذي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ .

« إن أول ما خلق الله القلم ، ثم قال له اكتب ، فجرى من تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة » [٣] أ . هـ لفظ أحمد . . وقال الترمذي حسن صحيح غريب .

والذي عليه الجمهور فيما نقله الحافظ أبو العلاء الهمداني وغيره « أن العرش مخلوق قبل ذلك » . . وهذا هو الذي رواه ابن جرير من طريق الضحاك

---

(١) عماد : قال في المصباح في شرح كلمة عمى « وعمى الخبر » خفى . . وقال والعماء مثل السحاب وزناً ومعنى .

(٢) ذلك أن القلم اداة الكتابة ورمز التعلم والثقافة . . فهو بداية تعقل الانسان وتفهمه . . وبداية تكون ذاته . . ولذا بدأ الله به الوحي « اقرأ » فمن اليسير أن يخلق أولاً قبل كل شيء لأنه أصل الذات . . والله أعلم .

(٣) وذلك بيان لفضل العلم ونشره .

عن ابن عباس كما دل على ذلك الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه ، حيث قال : حدثني أبو الطاهر أحمد بن عمرو بن السرح حدثنا ابن وهب أخبرني أبو هانىء الخولاني عن أبي عبد الرحمن الجيلي عن عبد الله بن عمرو بن العاصي قال : سمعت رسول الله ﷺيقول « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال وعرشه على الماء » أ . هـ [1] .

قالوا : « فهذا التقدير هو كتابته بالقلم المقادير . . كما دل هذا الحديث أن ذلك بعد خلق العرش فثبت تقديم العرش على القلم الذي كتب به المقادير كما ذهب إلى ذلك الجماهير . . ويحمل حديث القلم على أنه أول المخلوقات من هذا العالم . .

ويؤيد هذا ما رواه البخاري عن عمران بن حصين . قال : قال أهل اليمن لرسول الله ﷺ: جئناك لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر فقال : « كان الله ولم يكن شيء قبله » أ . هـ [2] . . وفي روايــة معه ، وفي رواية غيره « وكان عرشه على الماء . وكتب في الذكر كل شيء وخلق السماوات والأرض » . . ومن لفظ : « ثم خلق السماوات والأرض . فسألوه عن ابتداء خلق السماوات والأرض » . ولهذا قالوا : جئناك لنسألك عن أول الأمر فأجابهم عما سألوه فقط . ولهذا لم يخبرهم بخلق العرش كما أخبر به في حديث أبي رزين المتقدم .

قال ابن جرير وآخرون « بل خلق الله عز وجل الماء قبل العرش » ، رواه السدي عن أبي مالك ، وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺقالوا : « إن الله كان عرشه على الماء ، ولم يخلق شيئاً غير ما خلق قبل الماء » [3] .

وحكى ابن جرير عن محمد بن اسحاق أنه قال « أول ما خلق الله عز

---

(١) وهذا ما ثبت في الصحاح .
(٢) والحديث حديث صحيح . . أخرجه أصحاب السنن باسناد صحيح ولا خلاف عليه .
(٣) الحديث سبق .

وجل النور والظلمة ثم ميز بينهما فجعل الظلمة ليلاً اسـود مظلماً ، وجعـل النور نهاراً مضيئاً مبصراً » . .

قال ابن جرير . . وقد قيل « إن الذي خلق ربنا بعد القلم الكرسي . ثم خلق بعد الكرسي العرش . ثم خلق بعد ذلك الهواء والظلمة . . ثم خلق الماء فوضع عرشه على الماء » والله سبحانه وتعالى أعلم [١] .

* * *

---

(١) والاشارة الى النور والظلمة صحيحـة وذلك أنها تشـير الى العلم أيضاً . . أو بمعنى أدق الالتـزام الاسلامي العام . . فطريق النور هو طريق المؤمنين الصادقين الذين حافظوا على العهد . . وادوا ما جعلهم الله مستخلفين فيه . . وأما الآخـرون فهم الذين لم يَعـرفوا لهم طـريقاً . . ولم يحـددوا لهم مسلكاً فتاهوا وسط الطرق ووقفوا عند مفترقاتها . . فأولئك أصحاب الـظلمات . . والتـزام الانسان يجب أن يكون قبل العلم . . وما العلم النافع الا غرة من الالتزام الاسـلامي . . اما إذا لم ينفع فهو شر الوبال . . لذا فما حكاه ابن جرير صحيح وطريف وسليم . . ولكن الله أعلم .

فصل

صفة خلق العرش والكرسي

قال الله تعالى : ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش ﴾[١] ، وقال تعالى : ﴿ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾[٢] وقال الله : ﴿ لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾[٣] وقال : ﴿ وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾[٥] وقال : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾[٦] في غير آية من القرآن ، وقال تعالى : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ﴾[٧] .

وقال تعالى : ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾[٨] وقال تعالى : ﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾[٩] . .

---

(١) سورة غافر : ١٥
(٢) سورة المؤمنون : ١٦
(٣) سورة النمل : ٢٦
(٤) سورة البروج : ١٥
(٥) سورة طه : ٥
(٦) سورة الفرقان : ٥٩
(٧) سورة غافر : ٧
(٨) سورة الحاقة : ١٧
(٩) سورة الزمر : ٧٥

وفي الدعاء المروي في الصحيح في دعاء الكرب « لا إله إلا الله العظيم الحليم . لا إله إلا الله رب العرش الكريم . لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض رب العرش الكريم » [١] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا يحيى بن العلاء عن عمه شعيب بن خالد حدثني سمال بن حرب بن عبد الله بن عميرة عن الأحنف بن قيس عن عباس بن عبد المطلب قال : كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ بالبطحاء[٢] ؛ فمرت سحابة فقال رسول الله ﷺ « أتدرون ما هذا قال : قلنا السحاب قال والمزن قلنا والمزن [٣] قال والعنان [٤] قال : فسكتنا فقال : هل تدرون كم بين السماء والأرض قال : قلنا الله ورسوله اعلم قال بينهما مسيرة خمسمائة سنة ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة ، وكشف كل سماء [٥] مسيرة خمسمائة سنة ، وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض . ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين ركبهن وأخلافهن كما بين السماء والأرض والله فوق ذلك وليس يخفى عليه من أعمال بني آدم شيء » هذا لفظ الإمام أحمد . . ورواه أبو داود وابن ماجه والترمذي من حديث سماك باسناده نحوه . وقال الترمذي هذا حديث حسن ، وروى شريك بعض هذا الحديث عن سماك ووقفه ولفظ أبي داود « وهل تدرون بعدما بين السماء والأرض ؟ قالوا لا تدري » قال « بعدما بينهما إما واحدة أو اثنين أو ثلاثة وسبعون سنة » والباقي نحوه .

---

(١) الحديث اخرجه الصحيحين عن ابن عباس عن انس والترمذي .

(٢) البطحاء : أصله المسيل الواقع فيه دقاق الحصى ، وقيل بطن الوادي ، كذا جاء في معجم البلدان (٤٤٤٦/١) دار صادر .

(٣) المزن : بالضم ثم السكون وهو السحاب : اسم بلدة من قرى سمرقند كذا قال في معجم البلدان (١٢٢/٥) .

(٤) العنان : بالكسر ، يقال له عانه يعانه عناناً ومعانه كما يقال عارضه يعارضه عراضاً ، والعنن : الاعتراض ومنه حركة العنان كأنه عن لهما فاشتركا فيه ، وعنان : دار من ديار بني عامر معترض في بلادهم اعلاه لبني جودة واسفله لبني قشير » ا . هـ معجم البلدان (١٦٠/٤)

(٥) اعلم وفقك الله أن مقدار السنة أو الزمان المعين لا يعنى هذا الذي نستخدم فالمسيرة يختلف من انسان لآخر وربما كانت باسرع سير سيصل اليه الانسان .

وقال أبو داود حدثنا عبد الأعلى بن حماد ومحمد بن المثنى ومحمد بن بشار ، وأحمد بن سعيد الرباطي قالوا حدثنا وهب بن جرير . قال أحمد كتبناه من نسخته وهذا لفظه . قال حدثنا أبي قال سمعت محمد بن اسحاق يحدث عن يعقوب بن عقبة بن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال : أتى رسول الله ﷺ أعرابي فقال يا رسول الله : جهدت الأنفس ، وصاعت العيال (١) ، ونهكت الأموال وهلكت الأنعام . ما إستسق الله لنا فإنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك » قال رسول الله ﷺ « ويك أتدري ما تقول » وسبح رسول الله ﷺ فما زال يسبح حتى عرف ذلك من وجوه أصحابه . ثم قال « ويحك أنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه شأن الله أعظم من ذلك ويحك اتدري ما الله : إن عرشه على سمواته هكذا » (٢) ، وقال بأصابعه مثل القبة عليه ، وإنه ليئط (٣) به أطيط الراجل بالراكب .

قال ابن بشار في حديثه « إن الله فوق عرشه وعرشه فوق سمواته » وساق الحديث .

وقال عبد الأعلى وابن المثنى وابن بشار عن يعقوب بن عقبة وجبير بن محمد بن جبير عن أبيه عن جده . قال أبو داود والحديث باسناد أحمد بن سعيد وهو الصحيح . ووافقه عليه جماعة منهم يحيى بن معين وعلي بن المديني . . ورواه جماعة منهم عن ابن اسحاق كما قال أحمد أيضاً ، وكان سماع عبد الأعلى وابن المثنى وابن بشار من نسخة واحدة فيما بلغني . تفرد باخراجها أبو داود ، وقد صنف الحافظ أبو القاسم بن عساكر الدمشقي (٤) جزءاً من الرد على هذا الحديث . سماه « ببيان الوهم والتخليط الواقع في حديث الأطيط » واستفرع وسعه في الطعن على محمد بن بشار راويه . وذكر كلام الناس فيه ، ولكن قد

---

(١) العيال : ما يعوله الانسان من أولاد .

(٢) راجع الرسالة العرشية لابن تيمية . .

(٣) ليئط : أي لتثقل وتشتكي وكأنها تقع من شدة ما عليها .

(٤) ابن عساكر : حافظ كبير مشهور « والكتاب المشار إليه » لم أقف عليه بين المطبوع . .

روي هـذا اللفظ من طـريق أخـرى غـير محمــد بن اسحـاق . فـرواه عبـد بن حميد وابن جرير في تفسيريهما ، وابن أبي عاصم والطبراني في كتـاب السنة لهـما ، والبـزاز في مسنده والحـافظ الضياء المقـدس في مختـاراتـه من طـريق أبي أسحـاق السبيعي عن عبد الله بن خليفة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال :

أتت امـرأة إلى رسول الله ﷺ فقـالت ادع الله أن يـدخلني الجنـة ؟ قـال : فعظم الرب تبـارك وتعالى وقـال : ان كرسيـه وسع السمـاوات والأرض وإن له أطيطاً كأطيط الزحل الجديد من ثقـار [١] » أ . هـ [٢] وعبد الله بن خليفـة هذا ليس بذاك المشهور . وفي سماعه من عمـر نظر ، ثم منهم من يـرويه مـوقوفـاً و « مرسلاً » ومنهم من يزيد فيه زيادة غريبة . . والله أعلم .

* * *

وثبت في صحيـح البخاري عن رسـول الله ﷺ أنه قـال : « إذا سألتم الله الجنة فسلوه الفردوس الأعلى فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة وفوق عرش الرحمن » أ . هـ [٣] . يروى « وفوقـه » بالفتـح على الـظرفية ، وبـالضم . . قال شيخنـا الحافظ المزي[٤] وهو أحسن ، أى وأعلاها عرش الرحمن .

وقد جاء في بعض الآثار « أن أهل الفـردوس يسمعون أطيط العـرش وهو تسبيحه وتعظيمه » وما زال إلا لقربه منه . .

وفي الصحيـح أن رسول الله ﷺ قـال : « لقد أهـتز عرش الـرحمن لمـوت سعد بن معاذ » [٥] .

وذكـر الحافظ بن الحـافظ محمد بن عثمـان بن أبي شيبة في كتـاب « صفـة العرش عن بعض السلف » أن العرش مخلوق من ياقوتة حمراء بعد ما بين قطريه

---

(١) ثقار أي من قوته وثقله .

(٢) والمعنى أخرجاه في الصحيحين .

(٣) الحديث أخرجه عـن البخاري وهو صحيح .

(٤) الحافظ المزي : احد الحفاظ الكبار له مؤلفـاته وتصنيفـاته . ومـا ذهب إليه أحسن كـما قال ابن كثير .

(٥) الحديث أخرجه أصحاب السنن باسناد صحيح ولا خلاف عليه .

مسيرة خمسين ألف سنة » وذكرنا عند قوله تعالى : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ [1] أنه بعد ما بين العرش إلى الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة واتساعه خمسون ألف سنة . .

وقد ذهب طائفة من أهل الكلام إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل جهة ولذا سموه الفلك التاسع ، والفلك الأطلسي والأثير [2] .

وهذا ليس بجيد لأنه قد ثبت في الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة ، والفلك لا يكون له قوائم ولا يحمل ، وايضاً فإنه فوق السماوات ومنها مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض [3] فالبعد الذي بينه وبين الكرسي ليس هو نسبة فلك إلى فلك .

وأيضاً فإن العرش في اللغة عبارة عن السرير الذي للملك كما قال تعالى : ﴿ ولها عرش عظيم ﴾ .

وليس هو فلكاً ولا تفهم منه العرب ذلك .

والقرآن إنما نزل بلغة العرب فهو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة ، وهو كالقبة على العالم وهو سقف المخلوقات . . قال الله تعالى : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ [4] . . وقد تقدم في حديث الأوعال [5] أنهم ثمانية ، وفوق ظهورهن العرش . .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير الجزء الرابع عند تفسيره لهذه الآية . سورة المعارج : ٥ .

(٢) نعم « ليس بجيد » كما سيعلق ابن كثير . . لأن الكرسي والعرش لا يهم الناس في شيء . . وهو شيء اختص به علم الله . . فيجب رده الى علمه ومحاولة التفكر والتأمل في أمور نافعة مع الايمان الكامل بوجود العرش والكرسي . .

(٣) ولا عجب من فضل الله . والكرة ارضية قليلة جداً في عالم الخلق . . وهكذا قال العلماء المحدثون .

(٤) سورة النمل : ٢٣ .

سورة غافر : ٧

(٥) الأوعال : وهو الحديث الذي كره في بداية حديثه من العرش .

وقال تعالى : ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ [1] . .

وقال شهر بن حوشب [2] « حملة العرش ثمانية : أربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد مع حلمك بعد علمك » وأربعة يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك » أ . هـ .

وأما الحديث الذي رواه الأمام أحمد : حدثنا عبد الله بن محمد هو أبو بكر بن أبي شبهة ، حدثنا عبدة بن سليمان عن محمد بن اسحاق عن يعقوب بن عقبة عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ صدق أمية يعني ابن أبي الصلت في بيتين من شعره فقال :

رجلٌ وثورٌ تحت رجل يمينه والنسرُ للأخرى وليثٌ مرصد

فقال رسول الله ﷺ . فقال :

والشمس تطلع كل آخر ليلة حمراء مطلع لونها متورد

تأبى فلا تبدو لنا في رسلها إلا معذبة وإلا تجلد

فقال رسول الله ﷺ : صدق، فإنه حديث صحيح الاسناد رجاله ثقات . وهو يقنعني أن حملة العرش اليوم أربعة ، فيعارض حديث الأوعال . اللهم إلا أن يقال إن اثبات هؤلاء الأربعة على هذه الصفات لا ينفي ما عداهم . والله اعلم .

ومن شعر أمية بن أبي الصلت في العرش قوله :

مجدوا الله فهو للمجد أهل ربنا من السماء أمسى كبيراً

بالبناء العالي الذي بهز النا سَ وسوّى فوق السماء سريراً

شرجعا [3] لا يناله بصر العيـ ن ترى حوله الملائكة صوراً .

---

(١) سورة الحاقة ١٧ .

(٢) شهر بن حوش : قال النسائي في « كتاب الضعفاء والمحرومين » ليس بالقوي (٥٦) ط دار الوعي بحلب . .

وقال في الميزان « قال علي : أراه يكنى بأبي عبد الرحمن . قال أحمد : روي من أسماء بنت يزيد أحاديث حسانا ، وعن ابن معين قال : ثقة . وقال أبو حاتم . ليس هو بدون أبي الزبير ، ولا يحتج به ، وقالوا أبو زرعة : لا بأس به وعن أبي عون قال : إن شهراً تركوه . وقال ابن عدي : ليس بالقوى . وقال الغلاس: كان يحيى بن سعيد لا يحدث عن شهر ، وكان عبد الرحمن يحدث عنه ، واختلفت اقوال المحدثين فيه وطالت » ا . هـ انظر الكبير (٤/٢٥٨) . .

(٣) شرجعاً : سيأتي بعدها شرحها وهو العالي المنيف .

صور جمع أصور وهو المائل الصفة لنظره إلى العلو [1] ، والشرجع هو العالي المنيف . . والسرير هو العرش في اللغة . .

ومن شعر عبد الله بن رواحة رضى الله عنه الذي عرض به عن القراءة لامرأته حين اتهمته بجاريته :

شهدت بأن وعد الله حق ... وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طافٍ ... وفوق العرش رب العالمينا
وتحمله ملائكة كرام ... ملائكة الآله مشوفينا

ذكره ابن عبد البر وغير واحد من الأئمة . وقال أبو داود حدثنا أحمد بن حفص بن عبد الله . . حدثني أبي حدثنا ابراهيم بن طهمان عن موسى بن عقبة عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال :

« أذ لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله عز وجل من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام » [2] ا . هـ . . ورواه ابن أبي عاصم [3] . ولفظه « محقق الطير مسيرة سبعمائة عام » [4] .

* * *

وأما الكرسي

فروى ابن جرير من طريق جويبر وهو ضعيف [5] عن الحسن البصري أنه كان يقول : الكرسي هو العرش وهذا لا يصح عن الحسن بل الصحيح عنه

(١) العلو : أي إلى أعلى .
(٢) وقد ثبت ﷺ له حقيقة في موضعين .
(٣) أحد الرواة الثقات .
(٤) والروايات في الحديث دليل على متانة سندة . . لذا فهو صحيح .
(٥) جويبر : لعله جويبر بن سعيد البلخي ، قال عنه البخاري في كتاب الضعفاء الصغير (٢٧) ط دار الوعي بحلب « جويبر بن سعيد البلخي عن الضحاك ، قال علي : عن يحيى : كنت أعرف جويبراً بحديثين . ثم أخرج هذه الأحاديث » ا . هـ .
وقال في الميزان « جويبر بن سعيد البلخي : معشر » قال ابن معين : ليس بشيء . وقال الجوزجاني : لا يشغل به ، وقال النسائي والدارقطني وغيرهما : متروك الحديث . . روى عنه حماد وابن المبارك ويزيد بن هارون وطائفة . . قال الذهبي : له عن أنس شيء » ا . هـ . الميزان (١/٤٢٧) انظر الكبير (٢/٢٥٧) ٧

وعن غيره من الصحابة والتابعين أنه غيره وعن ابن عباس وسعيد بن جبير أنهما قالا في قوله تعالى: ﴿ وسع كرسيه السماوات والأرض ﴾ [1] . أي علمه والمحفوظ عن ابن عباس كما رواه الحاكم في مستدركه .

وقال إنه على شرط الشيخين ولم يخرجاه من طريق سفيان الثوري عن عمار الدهني عن مسلم البطين عن سعد بن جبير عن ابن عباس أنه قال « الكرسي موضع القدمين ، والعرش لا يقدر قدره الا الله عز وجل . وقد رواه شجاع بن مخلد الغلاس في تفسيره عن أبي عاصم النبيل عن الثوري فجعله مرفوعاً . . والصواب أنه موقوف مع ابن عباس . . وحكاه ابن جرير عن أبي موسى الأشعري والضحاك بن مزاحم واسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير . . ومسلم البطين « وقال السدي عن أبي مالك « الكرسي تحت العرش . . وقال السدي السماوات والأرض في جوف الكرسي والكرسي بين يدي العرش » . .

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس أنه قال « لو أن السماوات السبع والأرض السبع بسطن ثم وصلن بعضهن إلى بعض ما كن في سعة الكرسي إلا بمنزلة الحلقة في المفازة » ا . هـ .

وقال ابن جرير حدثني يونس حدثنا ابن وهب قال : قال ابن زيد حدثني أبي قال : قال رسول الله ﷺ : « ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس » [2] قال وقال أبو ذر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض » . أول الحديث مرسل . وعن أبي ذر منقطع .

وقد روي عنه من طريق أخرى موصولاً فقال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره [3] : أخبرنا سليمان بن أحمد الطبراني أنبأنا عبد الله بن وهب المغربي أنبأنا محمد بن أبي تسري العسقلاني أنبأنا محمد بن عبد الله التميمي عن

---

(١) أي في مكان كبير واسع .

(٢) تعدد الروايات تحسن من سنده . .

(٣) ابن مردويه : لم أقف على هذا التفسير مطبوعاً في مصر ودار الكتب المصرية . ولعله ما زال مخطوطاً . . أو لعله طبع في الهند كما سمعت والله أعلم .

القاسم بن محمد الثقفي عن أبي أدريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري انه سأل رسول الله ﷺ عن الكرسي فقال رسول الله ﷺ .. والذي نفسي بيده « ما السماوات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة » (١) .

وقال ابن جرير في تاريخه حدثنا ابن وكيع قال حدثنا أبي عن سفيان عن الأعمش عن المنهال بن عمر وعن سعيد بن جبير قال : سئل ابن عباس عن قوله عز وجل : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ (٢) على أي شيء كان الماء ؟ قال على متن الريح قال والسماوات والأرضون وكل ما فيهن من شيء وتحيط بها البحار ويحيط بذلك كله الهيكل ويحبط بالهيكل فيما قيل الكرسي (٣) . وروي عن وهب بن منبه نحوه . وفسر وهب (٤) الهيكل فقال :

« شيء من أطراف السماوات يحدق بالأرضين والبحار كأطنان الفسطاط ، وقد زعم بعض من ينتسب إلى علم الهيئة أن الكرسي عبارة عن الفلك الثامن الذي يسمونه فلك الكواكب الثوابت .. وفيما زعموه نظر لأنه قد ثبت أنه أعظم من السماوات السبع بشيء كثير .. فقد ورد الحديث المتقدم باب نسبتها إليه كنسبة حلقة ملقاة بأرض فلاة وهذا ليس نسبة فلك إلى فلك . فإن قال قائلهم فنحن نعترف بذلك ونسميه مع ذلك خلقاً فتقول الكرسي ليس في اللغة عبارة عن الفلك وانما هو كما قال غير واحد من السلف بين يدي العرش كالمرقاة إليه (٥) .

ومثل هذا لا يكون فلكاً وزعم أن الكواكب الثوابت مرصعة فيه لا دليل لهم عليه .. هذا مع اختلافهم في ذلك أيضاً كما هو مقرر في كتبهم .. والله أعلم .

* * *

(١) الحديث .

(٢) وابن عباس اعلم الناس بالتفسير ..

(٣) وقد سبق ما يؤ يد ذلك .

(٤) وهب بن منبه : عالم جليل من علماء القرن الثاني .. صالح ورجل تفسير راجع الطبقات الكبرى للشعراني .

(٥) المرقاة : لعلها من المرق : الاختراق .. والله أعلم .

ذكر اللوح المحفوظ

قال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة حدثنا منجاب بن الحارث حدثنا ابراهيم بن يوسف حدثنا زياد بن عبد الله عن ليث عن عبد الملك بن سعيد بن جبير عن أبيه عن ابن عباس أن نبي الله ﷺ قال .

« ان الله خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء صفحاتها من ياقوتة حمراء ، قلمه نور وكتابه نور لله فيه في كل يوم ستون وثلثمائة لحظة يخلق ويرزق ويميت ويحيي ويعز ويذل ويفعل ما يشاء » ا . هـ. [١] .

ـ وقال اسحاق بن بشر : أخبرني مقاتل وابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس قال : « ان في صدر اللوح لا إله إلا الله وحده دينه الاسلام ومحمد عبده ورسوله . . فمن آمن بالله وصدق بوعده واتبع رسله أدخله الجنة » [٢] قال : « واللوح المحفوظ لوح من درة بيضاء . . طوله ما بين السماء والأرض . وعرضه ما بين المشرق والمغرب . وحافتاه الدر والياقوت ، ودفتاه ياقوتة حمراء ، وكلمة نور ، وكلامه معقود بالعرش ، وأصله في حجر ملك » ا . هـ .

---

(١) وسيأتي روايات غير الطبراني .

(٢) وأنس خادم الرسول ومستحق . . وقوله له من الثقل والمكانة .

ـ وقال انس بن مالك وغيره من السلف « اللوح المحفوظ في جبهة اسرافيل » وقال مقاتل هو عن يمين العرش . . [1] .

* * *

خلق السماوات والأرض وما بينهما

قال الله تعالى : ﴿ والحمد لله الذي خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا وبهم يعدلون ﴾ [2] .

وقال تعالى : ﴿ الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ﴾ [3] في غير آية من القرآن . .

وقد اختلف المفسرون في مقدار هذه الستة الايام إلى قولين : ـ

فالجمهور على أنها كأيامنا هذه . . وعن ابن عباس ، ومجاهد والضحاك ، وكعب الأحبار : أن كل يوم منها كألف سنة مما تعدون . . رواهن ابن جرير . . وابن أبي حاتم . . واختار هذا القول الامام أحمد بن حنبل في كتابه الذي رد فيه على الجهمية وابن جرير وطائفة من المتأخرين . . والله أعلم . وسيأتي ما يدل على هذا القول . .

وروى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم وغيره أن أسماء أيام الستة « أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت» . . وحكى ابن جرير في أول الايام ثلاثة أقوال . . فروى عن محمد بن اسحاق أنه قال « يقول أهل التوراة : ابتدأ الله الخلق يوم الأحد ، ويقول أهل الانجيل : ابتدأ الله الخلق يوم الاثنين ، ونقول نحن المسلمين فيما انتهى إلينا عن رسول الله ﷺ : « وابتدأ الله الخلق يوم السبت » وهذا القول الذي حكاه ابن اسحاق عن المسلمين مال إليه طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم . . وسيأتي فيه حديث أبي هريرة « خلق الله التربة يوم السبت » .

---

(١) راجع التذكرة للقرطبي ، الاحياء للغزالي . . الحياة بعد الموت للمحقق

(٢) ١ : صورة الأنعام .

(٣) ٤ : صورة السجدة .

والقول بأنه الأحد رواه ابن جرير عن السدي عن أبي مالك ، وأبي صالح عن ابن عبـاس ، وعن مرة عن ابن مسعـود ، وعن جماعـة من الصحابـة ورواه أيضاً عن عبد الله بن سلام ، واختاره ابن جرير ، وهو نص التوراة ، ومال إليه طائفة آخـرون من الفقهاء . وهـو أشبه بلفظ الأحـد ولهذا اكمـل الخلق في ستة أيام فكان آخرهن الجمعة فاتخذه المسلمون عيدهم في الأسبـوع وهو اليـوم الذي أضل الله عنه أهل الكتاب قبلنا كما سيأتي بيانه إن شاء الله .

وقـال تعالى : ﴿ هـو الذي خلق لكم مـا في الأرض جميعاً ثم استـوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهـو بكل شيء عليم ﴾ (١) وقـال تعالى : ﴿ قـل ائنكم لتكفـرون بالـذي خلق الأرض في يـومـين وتجعلون لـه أنـداداً ذلـك رب العالمين وجعل فيها رواس من فوقها وبارك فيها وقـدر فيها أقـواتها في أربعـة أيام سواء للسائلين . . ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض إئتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبـع سموات في يـومين ، وأوحى في كـل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح ، وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ (٢) فهـذا يدل عـلى أن الأرض خلقت قبل السـماء لأنها كـالأسـاس للبنـاء كـما قـال تعـالى : ﴿ الله الذي جعـل لكم الأرض قراراً والسـماء بنـاء وصـوركم فـأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴾ .

وقـال : ﴿ ألم نجعل الأرض مهـاداً والجبال اوتـاداً ﴾ إلى أن قال ﴿ وبنينا فـوقكم سبعاً شـداداً ، وجعلنا سـراجاً وهـاجاً ﴾ (٣) وقـال : ﴿ أو لم ير الـذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهـا وجعلنا من المـاء كل شيء حي افلا يؤمنون ﴾ (٤) .

أي فصلنـا ما بـين السماء والأرض حتى هبت الـريـاح ونـزلت الأمـطار ، وجـرت العيون ، والأنهار وانتعش الحيـوان . ثم قال : ﴿ وجعلنـا السماء سقفـاً

---

(١) ٢٩ : صورة البقرة .
(٢) ١١ : صورة فصلت .
(٣) ١٢ ، ١٣ : صورة النبأ .
(٤) ٣٠ : صورة الانبياء .

محفوظاً وهم عن آياتها معرضون ﴾ (١) أي عما خلق فيها من الكواكب الثوابت ، والسيارات والنجوم الزاهرات والأجرام (٢) النيرات ، وما في ذلك من الدلالات على حكمة خالق الأرض والسماوات كما قال تعالى : ﴿ وكأيّن من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ (٣) ، فإما قوله تعالى : ﴿ أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ (٤) فقد تمسك بعض الناس بهذه الآية على تقدم خلق السماء على خلق الأرض . فخالفوا صريح الآيتين المتقدمتين ولم يفهموا هذه الآية الكريمة فان مقتضى هذه الآية أن دحى الأرض (٥) واخراج الماء (٦) والمرعى منها بالفعل بعد خلق السماء . .

وقد كان ذلك مقدراً فيها بالقوة كما قال تعالى : ﴿ وبارك فيها وقدر فيها أقواتها ﴾ (٧) أي هيأ أماكن الزرع ومواضع العيون والأنهار ثم لما أكمل خلق صورة العالم السفلي والعلوي دحى الأرض فأخرج منها ما كان مودعاً فيها فخرجت العيون وجرت الأنهار ، ونبت الزرع والثمار ولهذا فسر الدحي باخراج الماء والمرعى منها وارسال الجبال فقال : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها ﴾ (٨) وقوله : ﴿ والجبال أرساها ﴾ أي قررها في أماكنها التي وضعها فيها وثبتها وأكدها وأطدها (٩) وقوله : ﴿ والسماء بنيناها بأيد وانا

---

(١) ٣٢ : صورة الانبياء .
(٢) انظر الدراسة في بداية الكتاب لتعلم شيئاً عن الأجرام السماوية ومداراتها . .
(٣) ١٠٥ : صورة يوسف .
(٤) ٢٦ - ٣٢ : صورة النازعات .
(٥) دحى الأرض اي جعلها كالدحة وهي البيضة . . وقد ثبت أن الأرض بيضاوية لا كروية . .
(٦) أي من باطن الأرض .
(٧) ١٠ : صورة فصلت .
(٨) ٣٠ ، ٣١ : صورة النازعات .
(٩) أطدها : أي ثبتها .

لموسعون ، والأرض فرشناها فنعم الماهدون ، ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ (١) بأيد أي بقوة . وانا لموسعون ، وذلك أن كل ما علا اتسع فكل سماء أعلى من التي تحتها فهي أوسع منها ، ولهذا كان الكرسي أعلى من السماوات . وهو أوسع منهن كلهن . والعرش أعظم من ذلك كله بكثير . وقوله بعد هذا ﴿ والأرض فرشناها ﴾ أي بسطناها وجعلناها مهداً أي قارة ساكنة غير مضطربة ولا مائدة بكم . ولهذا قال : ﴿ فنعم الماهدون ﴾ والواو لا تقتضى الترتيب في الوقوع . وانما الأخبار المطلق في اللغة والله أعلم .

وقال البخاري : حدثنا عمر بن جعفر بن غباث حدثنا أبي حدثنا الأعمش حدثنا بن شداد عن صفوان بن محر أنه حدثه عن عمران بن حصين قال :

« دخلت على النبي ﷺ وعقلت ناقتي بالباب ، فأتاه ناس من بني تميم فقال : اقبلوا البشرى يا بني تميم » قالوا قد بشرتنا فاعطنا مرتين ثم دخل عليه ناس من اليمن فقال : « اقبلوا البشرى يا أهل اليمن ان لم يقبلها بنو تميم » قالوا قد قبلنا يا رسول الله قالوا : جئناك نسألك عن هذا الأمر . قال : « كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السماوات والأرض » فنادى مناد ذهبت ناقتك ان الحصين فانطلقت فإذا هي تقطع دونها السراب فوالله لوددت اني كنت تركتها » هكذا رواه ها هنا . . وقد رواه في كتاب المغازي وكتاب التوحيد وفي بعض ألفاظه :

« ثم خلق السماوات والأرض » وهو لفظ النسائي أيضاً .

وقال الامام أحمد بن حنبل : حدثنا ابن جريج أخبرني اسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع مولى أم مسلمة عن أبي هريرة قال : « أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال : خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر خلق خلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر الى الليل » وهكذا رواه مسلم عن سريج بن يونس وهارون بن عبد الله والنسائي

(١) ٤٨ ، ٥٠ : صورة الذاريات .

عن هارون ويوسف بن سعيد ثلاثتهم عن حجاج بن محمد المصيص الأعـور عن ابن جريج به مثله سواء .

وقـد رواه النسـائي في التفسـير عن ابـراهيم بن يعقـوب الجـوزجـاني عن محمد بن الصباح عن أبي عبيدة الحداد عن الاخضـر بن عجلان عن ابن جـريج عن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة « أن رسول الله ﷺ أخذ بيدي فقال يـا أبا هريرة « ان الله خلق السمـاوات والأرض وما بينهـا في ستة أيـام ثم استوى عـلى العرش يوم السابع ، وخلق التـربة يـوم السبت » ا . هـ وذكر تمـامه بنحـوه . . فقد اختلف فيه على ابن جريج [1] . .

وقـــد تكلم في هـذا الحـــديث عـلي بن المـــدين والبخـــاري والبيهقي من الحافظ . . قال البخاري في التاريـخ ، وقال بعضهم عن كعب وهـو أصح يعني أن هـذا الحديث ممـا سمعه أبـو هريـرة ، وتلقاه من كعب الأحبـار ، فـإنهما كـان يصطحبان ويتجـالسان للحـديث ، فهذا يحـدثه عن صحفـه ، وهذا يحـدثه بمـا يصدقه عن النبي ﷺ . . فكان هذا الحديث مما تلقـاه أبو هـريرة عن كعب عن صحفه ، فوهم بعض الرواة فجعله مرفوعاً الى النبي ﷺ وأكد رفعه بقوله :

« أخذ رسول الله ﷺ بيدي » ا . هـ ثم في متنه غرابة شديدة . .

فمن ذلك أنه ليس فيه ذكر خلق السماوات ، وفيه ذكـر خلق الأرض وما فيها في سبعة أيام . وهذا خلاف القرآن لأن الأرض خلقت في أربعـة أيام ، ثم خلقت السمـاوات في يومـين من دخـان . وهـو بخـار المـاء الـذي ارتفـع حـين اضطرب الماء العظيم الذي خلق من زبدة الأرض بالقـدرة العظيمـة البالغـة كما قال اسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في خبر ذكـره عن أبي مالـك ، وعن أبي صـالح عن ابن عبـاس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعـود ، وعن نـاس من أصحاب رسول الله ﷺ « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبـع سماوات » [2] . . . قـال إن الله كان عـرشه عـلى الماء ولم

(١) ابن جريج : قـال النسائي في سـرد الثقات « وبعـد هؤلاء عمرو بن دينـار، وبعده ابن جـريج وشيبان بن عيينه . . . الـخ » ا . هـ . انظر كتـاب الضعفاء والمتـروكين (١٢٧) ط دار الـوعي بحلب .

(٢) ٩ ، ٢ : صورة البقرة .

يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً فارتفع فوق الماء فسما سماء ، ثم ايبس الماء فجعله أرضاً واحـدة ثم فتقها فجعـل سبع أرضين في يومين « الأحد والاثنـين » وخلق الأرض على حـوت وهو النـون الذي قال الله تعالى : ﴿ نون والقلم وما يسطرون ﴾ والحوت في الماء والماء على صفات والصفات على ظهر ملك والملك على صخرة والصخرة في الريح ، وهي الصخرة التي ذكـرها لقمـان ليست في السماء ولا في الأرض فتحـرك الحـوت فـاضـطرب الحوت فتزلزلت الأرض فأرسى عليها الجبال فقرت .

وخلق الله يـوم الثلاثـاء الجبال ومـا فيهن من المنافـع وخلق يـوم الأربعـاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخـراب وفتق السماء وكـانت رتقاً فجعلهـا سبع سمـاوات في يومـين الخميس والجمعة . . وانمـا سمي يوم الجمعـة لأنه جمـع فيه خلق السماوات والأرض وأوحى في كل سماء أمرها . .

ثم قال خلق في كل سماء خلقها من المـلائكة والبحـار وجبال البـرد وما لا يعلمــه غيـره ، ثم زين الســماء بـالكــواكب فجعلهـا زينــة وحفـظاً يحفظ من الشياطين [١] ، فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش . هكذا الاسناد يـذكـر بن السـدى أشيـاء كثيـرة فيهـا غــرابـة ، وكـــان كثـير منهـــا ملتقى من الاسرائيليات .

فـإن كعب الأحبار [٢] لمـا أسلم في زمن عمـر كـان يتحـدث بـين يـدي الخطاب رضى الله عنه باشياء من علوم أهل الكتاب فيستمع له عمر تأليفـاً له ، وتعجباً مما عنده مما يوافق كثير منه الحق الذي ورد به الشرع المطهر فاستجاز كثير من الناس نقل ما يورده كعب الأحبار لهذا ، ولما جاء من الأذن في التحديث عن بني اسزائيل . . لكن كثيراً مما يقع مما يرويه غلط كبير وخطأ كثير . .

---

(١) فقد ثبت أن الجن كانوا يصعدون الى السماء فيتصفون لما يقال فيهـا . . فأرسـل الله عليهم شهباً منها تحرقهم . . فلم يعدوا يتصنتون . .

(٢) كعب الأحبار : حكيم يهودي أسلم وحسن اسلامه . . . وروى الحديث وكان أول القصـاصين في الاسلام . . ولكن تدور حوله كثير من الشبه . والله أعلم .

وقد روى البخاري في صحيحه عن معاوية أنه كان يقول في كعب الاحبار « وان كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب » أي فيما ينقله لا أنه يتعمد ذلك . . والله أعلم .

ونحن نورد من الذي يسوقه كثير من الائمة المتقدمين عنهم ، ثم تتبع ذلك من الأحاديث بما يشهد له بالصحة أو يكذبه ويبقى الباقي مما لا يصدق ولا يكذب وبه المستعان وعليه التكلان . .

قال البخاري : حدثنا قتيبة حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن القرشي عن أبي زناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله « لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش : ان رحمتي غلبت غضبي » ا . هـ . . وكذا رواه مسلم والنسائي عن قتيبة .

ما جاء في سبع أرضين

قال البخاري

وقـوله تعـالى : ﴿ واللَّه الـذي خلق سبـع سَمَـاوَات ومن الأرض مثلهُنَّ يَتَنَزّلُ الأمر بَيْنَهُنَّ لتعلمـوآ أن الله على كل شيء قـدير وأن الله قـد أحاط بكـل شيء علمـا ﴾ (١) . . ثم قال : حـدثنا علي بن عبـد الله أخبرنـا ابن عليـة عن علي بن المبارك حدثنـا يحيى بن أبي كثير عن محمـد بن ابراهيم بن الحـارث عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وكانت بينه وبين ناس خصومة في أرض فـدخل على عائشة فذكر لها ذلك . فقـالت يا أبـا سلمة : أجتنب الأرض فـإن رسول الله ﷺ قال :

« من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أرضين » . .

ورواه أيضاً في كتاب المظالم ، ومسلم عن يحيى بن كثير ، ورواه أحمـد من حديثه عن محمد بـن ابراهيم عن أبي سلمة . . ورواه أيضاً عن يـونس عن ابان عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن عائشة بمثله . . ثم قال البخاري حـدثنا بشر بن محمد قال أخبرنا عبد الله بن موسى بن عقبة عن سالم عن أبيه قال : قال النبي ﷺ« من أخذ شيئاً من الأرض بغـير حقه خسف بـه يوم القيـامة إلى سبـع أرضين » أ . هـ . .

---

(١) ١٢ : صورة الطلاق .

ورواه في المظالم أيضاً عن مسلم بن ابراهيم عن عبد الله هو ابن المبارك عن موسى بن عقبة وهو من افراده . وذكر البخاري ها هنا حديث محمد بن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه ، قال قال رسول الله ﷺ « الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السماوات والأرض السنة اثني عشر شهراً » أ . هـ الحديث . . ومراده والله أعلم تقرير قوله تعالى ﴿ الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ﴾(١) أي من العدد كما أن عدة الشهور الآن اثني عشر مطابقة لعدة الشهور عند الله في كتابه الأول فهذه مطابقة من الزمن كما أن تلك مطابقة في المكان . ثم قال البخاري : حدثنا عبيد بن اسماعيل حدثنا أبو أسامة عن هشام عن أبيه عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل أنه خاصمته أروى(٣) في حق زعمت أنه انتقصه لها إلى مروان فقال سعيد رضي الله عنه انا انتقص من حقها شيئاً ؟ أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أخذ شبراً من الأرض ظلماً فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين » أ . هـ ورواه . . (٤) .

وقال الامام أحمد : حدثنا حسن وأبو سعيد مولى بني هاشم حدثنا عبد الله بن لهيعة (٢) حدثنا عبد الله بن جعفر عن أبي عبد الرحمن عن ابن مسعود قال « قلت يا رسول الله : أي الظلم اعظم قال : ذراع من الأرض ينتقصه المرء المسلم من حق أخيه فليس حصاة من الأرض يأخذ أحد إلا طوقتها يوم القيامة إلى مقر الأرض ، ولا يعلم مقرها إلا الذي خلقها » أ . هـ تفرد به أحمد . . وهذا اسناد لا بأس به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان حدثنا وهيب حدثنا سهيل عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « من أخذ شبراً من الأرض بغير حقه طوقه من سبع أرضين » أ . هـ تفرد به من هذا الوجه وهو على شرط مسلم .

---

(١) السابقة .
(٢) اروى : اسم . . ولعله أعجمي . « وهم اسم امرأة » .
(٣) راجع « التابع الجامع للأصول » باب الظلم .
(٤) ابن لهيعة : معروف بضعفه . . قال فيه الكثير . . ولم يوقعه واحد . . والله أعلم .

وقال أحمد : حدثنا يحيى عن ابن عجلان حدثني أبي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺقال : « من اقتطع شبراً من الأرض بغير حقه طوقه إلى سبع أرضين » أ . هـ تفرد به أيضاً وهو على شرط مسلم . .

وقال أحمد : حدثنا عفان أبو عوانة عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة أن النبي ﷺقال : « من أخذ من الأرض شبراً بغير حقه طوقه من سبع أرضين » أ . هـ تفرد به أيضاً وقد رواه الطبراني من حديث معاوية بن قرة عن ابن عباس مرفوعاً مثله . .

* * *

فهذه الأحاديث كالمتواترة في اثبات سبع أرضين « والمراد بذلك أن كل واحدة فوق الأخرى والتي تحتها في وسطها عند أهل الهيئة حتى ينتهي الأمر الى السابعة وهي صماء لا جوف لها ، وفي وسطها المركز وهي نقطة مقدرة متوهمة .

وهو محط الاثقال ، اليه ينتهي ما يهبط بين كل جانب إذا لم يعاونه مانع واختلفوا هل من متراكمات بلا تفاصل أو بين كل واحدة والتي تليها خلاء على قولين وهذا الخلاف جار في الأفلاك أيضاً .

والظاهر أن بين كل واحدة والتي تليها خلاء على قولين . وهذا الخلاف جار في الأفلاك أيضاً . والظاهر أن بين كل واحدة منهن وبين الأخرى مسافة لظاهر قوله تعالى : ﴿ الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهم ﴾[1] الآية .

وقال الامام أحمد حدثنا شريح حدثنا الحكم بن عبد الملك عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة قال :

« بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ مرت سحابة . . فقال « أتدرون ما هذه قلنا الله ورسوله أعلم قال العنان وزوايا الأرض تسوقه إلى من لا يشكرونه من

---

(١) ١٢ : صورة الطلاق .

عباده ولا يدعونه . . أتدرون ما فوقكم : قلنا الله ورسوله أعلم . . قال الرفيع موج مكفوف وسقف محفوظ ، أتدرون كم بينكم وبينها قلنا الله ورسوله أعلم . قال مسيرة خمسمائة سنة . ثم قال أتدرون ما الذي فوقها قلنا الله ورسوله اعلم .قال : مسيرة خمسمائة عام حتى عد سبع سماوات . . ثم قال : أتدرون ما فوق ذلك قلنا الله ورسوله أعلم . . قال العرش أتدرون كم بينه وبين السماء السابعة قلنا الله ورسوله اعلم قال : مسيرة خمسمائة عام . ثم قال أتدرون ما هذه تحتكم قلنا الله ورسوله أعلم . . قال أرض أخرى . . أتدرون كم بينها قلنا الله ورسوله اعلم . قال مسيرة سبعمائة عام حتى عد سبع أرضين ثم قال : وأيم الله لو وليتم أحدكم إلى الأرض السفلى السابعة لهبط . ثم قرأ ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾[(١)] أ . هـ ورواه الترمذي عن عبد بن حميد ، وغير واحد عن يونس بن محمد المؤدي عن شيبان بن عبد الرحمن عن قتادة ، قال : حدث المحسن عن أبي هريرة وذكره الا انه ذكر انه بعد ما بين كل أرضين خمسمائة عام وذكر في آخره كلمة[(٢)] ذكرناها عند تفسير هذه الآية من سورة الحديد[(٣)] . . ثم قال الترمذي : هذا حديث غريب من هذا الوجه قال ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلي بن زيد أنهم قالوا لم يسمع الحسن من أبي هريرة . .

ورواه أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم في تفسيره من حديث أبي جعفر الرازي عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة فذكر مثل لفظ الترمذي سواء بدون زيادة في آخره . . ورواه ابن جرير في تفسيره عن بشر عن يزيد عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة مرسلاً . . وقد يكون هذا أشبه والله أعلم . .

ورواه الحافظ أبو بكر البزار والبيهقي من حديث أبي ذر الغفاري عن النبي ﷺ ولكن لا يصح إسناده . . والله أعلم . .

---

(١) ٣ : صورة الحديد .

(٢) انظر تفسير ابن كثير الجزء الرابع . أول سورة الحديد .

(٣) ألا وهي : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » الآية ٣ : سورة الحديد كما تقدم .

وقد تقدم عند صفة العرش من حديث الأوعال ما في لف هـذا في ارتفاع العـرش عن السماء السـابعة ومـا يشهد لـه . . وفيه وبعـد ما بـين كـل سـماءين خمسمـائة عـام . وكثفها أي سمكهـا خمسمائـة عام ، وأمـا ما ذهب اليـه بعض المتكلمين على حديث « طوقه من سبع أرضـين » أنها سبعة أقـاليم . فهو يخـالف ظاهر الآية والحديث الصحيح وصريـح كثير من ألفـاظه ممـا يعتمد من الحـديث الذي أوردناه من طريق الحسن عن أبي هريرة .

ثم أنه حمل الحديث والآية على خلاف ظاهرهما بـلا مستند ولا دليـل والله أعلم . وهكذا ما يذكره كثير من أهل الكتاب وتلقاه عنهم طائفة من علمائنا من أن هذه الأرض من تراب والتي تحتها من حديد والأخرى من حجارة من كبريت والأخرى من كذا فكل هذا إذا لم يخبر به ويصحح سنده إلى معصـوم فهو مـردود على قائله .

وهكذا الأثر المروي عن ابن عباس أنه قال في كل أرض من الخلق مثل ما في هـذه حتى آدم كآدمكم وابـراهيم كابراهيمكم فهـذا ذكـره ابن جـريـر مختصـراً واستقصاه البيهقي في الأسماء والصفات وهو محمـول أن صح نقله عنـه على أنـه أخذه ابن عباس رضي الله عنه عن الاسرائيليات والله أعلم .

وقال الامام احمد : حدثنا يزيد حدثنـا العوام بن حـوشب عن سليمان بن أبي سلمـان عن أنس بن مالـك عن النبي ﷺ قال : لمـا خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال فـألقاهـا عليها فـاستقرت فتعجبت المـلائكة من خلق الجبـال فقالت يا رب هل من خلقك شيء أشـد من الجبال قال نعم الحديد . قالت يـا رب فهل من خلقك شيء أشد من الحديـد قال نعم النـار . قالت يـا رب فهل من خلقك شيء أشـد من النار قال نعم الريح . قالت يا رب فهـل من خلقك شيء أشد من الريح قال نعم ابن آدم يتصدق بيمينه يخفيها عن شمالـه » أ . هـ تفرد به أحمد .

* * *

وقد ذكر أصحاب الهيئة اعداد جبال الأرض في سائر بقاعها شرقاً وغرباً ،

وذكروا طولها وبعد امتدادها وارتفاعها وأوسعوا القول في ذلـك ما يـطول شرحـه هنا . .

وقد قال تعالى : ﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف أنـواعها وغـرابيب سـود ﴾ [1] . . قال ابن عبـاس وغير واحـد الجدد الـطرائق . . وقـال عكـرمـة وغيره . الغرابيب الجبال الطوال السود . وهذا هـو الشاهـد من الجبال في سـائر الأرض تختلف بـاختـلاف بقـاعهـا وألـوانها . وقـد ذكـر الله تعـالى فمن كتـابـه « الجودى » [2] على التعيين وهو جبـل عظيم شـرقي جزيـرة ابن عمر الى جـانب دجلة . عند الموصل امتداده من الجنوب الى الشمال مسيرة ثلاثـة ايام وارتفـاعه مسيرة نصف يوم وهو أخضر لأن فيه شجراً من البلوط وإلى جانبه قرية يقال لها قرية الثمانين لسكنى الذين نجوا في السفينة مع نوح عليه السلام في موضعها فيما ذكره غير واحد من المفسرين . . والله أعلم[3] .

* * *

---

(١) ٣٧ : سورة فاطر .

(٢) قال ابن كثير « الجودي : ياؤه مشددة : هو جبل مطل على جزيرة ابن عمر في الجـانب الشرقي من دجلة من أعمال الموصل ، عليه استوت سفينة نوح عليه السلام لما نضب المـاء وفي التوراة : أمر الله ، عز وجل ، نوحاً عليه السلام أن يعمل سفينة طولهـا ثلاثمـائة ذراع وعـرضها خمسـون ذراعاً وسمكها ثلاثون ذراعاً وكانت من خشب الشمشـا ومقيرة بـالقار ، وجـاء الطوفـان في سنة الستمائة من عمر نوح عليه السلام في الشهر الثاني في اليـوم السابـع عشر منـه ، وأقام المـاء على الأرض مائة وخمسين يوماً ، واستقرت السفينة على الجودي في الشهر السابع في اليوم السابع عشر منه ، ولما كان في سنة احدى وستمائة من عمر نوح في اليوم الأول من الشهر الأول خف الماء من الأرض ، وفي الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين منه جفت الأرض وخرج نوح ومن معه من السفينة مسجداً ومذبحاً لله تعالى وقرب قرباناً ، هذا لفظ تعريب التوراة حرفاً حـرفاً . ومسجـد نوح عليه السلام موجود بالجودى .

وقرأ الأعمش « واستقرت على الجودى » بتخفيـف الياء ا . هـ . معجم البلدان (٢ / ١٨٠)

(٣) راجـع تفسير ابن كثير في تفسير الآيـة (٣٤) من سورة نـوح ، وقصص الانبيـاء لابن كثير من البداية والنهاية .

في البحار والأنهار

قال الله تعالى ﴿ وهو الذي سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى في الأرض رواس أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون . وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » [2] .

وقال تعالى : ﴿ وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينها برزخاً وحجراً محجوراً ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان ﴾[4] .

فالمراد بالبحرين البحر الملح المر وهو الأجاج ، والبحر العذب هو هذه

---

(١) ١٤ ـ ١٨ : سورة النحل .

(٢) ١٢ : سورة فاطر .

(٣) ٥٣ : سورة الفرقان .

(٤) ١٩ : سورة الرحمن .

الأنهار السارحة بين أقطار الأمصار لمصالح العباد . . قاله ابن جريج وغير واحد من الأئمة .

* * *

وقال تعالى : ﴿ ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور أو يوبقهن بما كسبوا ويعفُ عن كثير ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختال كفور ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾[3] .

فامتن تعالى على عباده بما خلق لهم من البحار والأنهار فالبحر المحيط بسائر أرجاء الأرض وما ينبت منه في جوانبها الجميع مالح الطعم مر وفي هذا حكمة عظيمة لصحة الهواء إذ لو كان حلواً لأنتن الجو وفسد الهواء بسبب ما يموت فيه من الحيوانات فكان يؤدي الى تفاني بني آدم ولكن اقتضت الحكمة البالغة أن يكون على هذه الصفة لهذه المصلحة[4]. ولهذا لما سئل رسول

---

(١) ٣٢ : سورة الشورى .
(٢) ٣١ : سورة لقمان .
(٣) ١٦٤ : سورة البقرة .
(٤) وفي البحر المالح فوائد جمة وشفاء من كثير من الأمراض . . وفيه تعيش كثير من الحيوانات طيبة المأكل . .

الله ﷺ عن البحر قال هو الطهور ماؤه الحل ميتة [١] .

* * *

وأما الأنهار فماؤها حلو عذب فرات سائغ شرابها لمن أراد بذلك . وجعلها جارية سارحة ينبعها تعالى في أرض ويسوقها إلى أخرى رزقاً للعباد . ومنها كبار ومنها صغار بحسب الحاجة والمصلحة .

وقد تكلم أصحاب علم الهيئة والتفسير على تعداد البحار والأنهار الكبار وأصول منابعها والى أين ينتهي سيرها بكلام فيه حكم ودلال على قدرة الخالق تعالى ، وأنه فاعل بالاختيار والحكمة . . وقوله تعالى : ﴿ والبحر المسجور ﴾ [٢] فيه قولان .

أحدهما أن المراد به البحر الذي تحت العرش المذكور في حديث الأوعال . وانه فوق السماوات السبع بين أسفله وأعلاه كما بين سماء الى سماء ، وهو الذي ينزل منه المطر قبل البعث فتحيا منه أجساد من قبورها . وهذا القول هو اختيار الربيع بن أنس .

والثاني أن البحر يعم سائر البحار التي في الأرض وهو قول الجمهور .

واختلفوا في معنى البحر المسجور فقيل المملوء وقيل يصير يوم القيامة ناراً تؤجج فيحيط بأهل الموقف كما ذكرناه في التفسير عن علي وابن عباس وسعيد بن جبير وابن مجاهد وغيرهم .

وقيل المراد به الممنوع المكفوف المحروس عن أن يطغى فيغمر الأرض ومن عليها فيغرقوا » رواه الوالبي عن ابن عباس وهو قول السدي وغيره .

---

(١) ويتساءل بعض الناس عن السر في أكل الميت من البحر . . وقد أخطأوا الفهم . . فالذبح المشروع وهو قطع الدورة الدموية للحيوان فتخرج روحه . . فيحل أكله . . والذبح كحيوان البحر تماماً . . لأن حيوان البحر يتنفس من خلال الماء . . فأن خرج منه انقطعت دورته فأسلم للروح . . فخروج حيوان البحر من الماء لا يعني موته بل خروج روحه أو ذبحه بالطريق المشروع كالحيوانات الأخرى تماماً . . والله أعلم .

(٢) ٦ : سورة الطور .

ويؤيده الحديث الذي رواه الأمام احمد : حدثنا عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺقال : « ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات يستأذن الله عز وجل أن يتفصح [1] عليهم ، فيكفه الله عز وجل » أ . هـ ورواه اسحاق بن راحوية [2] عن يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب حدثني شيخ مرابط قال :

« خرجت ليلة لحرس لم يحج أحد من الحرس غيري فأتيت الميناء فصعدت فجعل يخيل اليّ أن البحر يشرف يحاذي برؤوس الجبل فعل ذلك مراراً وأنا مستيقظ فلقيت أبا صالح فقال حدثنا عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺقال :

« ما من ليلة إلا والبحر يشرف ثلاث مرات يستأذن الله أن يتفصح عليهم فيكفه الله عز وجل »عن أ . هـ في اسناده رجل مبهم[3] والله أعلم .

* * *

وهذا من نعمه تعالى على عباده أن كف شر البحر عن أن يطغى عليهم وسخره لهم يحمل مراكبهم ليبلغوا عليها الى الأقاليم النائية بالتجارات وغيرها وهداهم فيه بما خلقه في السماء والأرض من النجوم والجبال التي جعلها لهم علامات يهتدون بها في سيرهم وبماخلق لهم فيه من اللآلىء والجواهر النفيسة العزيزة الحسنة الثمينة التي لا توجد إلا فيه وبما خلق فيه من الدواب الغريبة وأحلها لهم حتى ميتتها كما قال تعالى :

﴿ أحل لكم صيد البحر وطعامه ﴾ [4] .

وقال النبي ﷺ« هو الطهور ماؤه الحل ميتة » [5] أ . هـ وفي الحديث الآخر « أحلت لنا ميتتان ودمان : السمك والجراد والكبد والطحال » أ . هـ رواه

---

(١) أي يعتلي فيغرقهم .

(٢) اسحاق بن راهوية : أمير المؤمنين في الحديث من علماء القرن الثاني . .

(٣) أي غير معروف الحال . . فيصعب الحكم على الحديث .

(٤) ٩٦ : سورة المائدة .

(٥) ومتنه صحيح وتعدد رواياته تحسنه .

أحمد وابن ماجه وفي اسناده نظر .

* * *

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده « وجدت في كتاب محمد بن معاوية البغدادي حديثاً عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة قال : « كلم الله هذا البحر الغربي ، وكلم البحر الشرقي ، فقال للغربي : إني حامل فيك عباداً من عبادي فكيف أنت صانع بهم ؟ قال اغرقهم . قال بأسك في نواحيك وحرمه الحلية والصيد ، كلم هذا البحر الشرقي فقال اني حامل فيك عباداً من عبادي فما أنت صانع بهم ؟ قال : أحملهم على يدي ، وكون لهم كالوالدة لولدها فاثابه الحلية والصيد ، ثم قال لا تعلم أحداً » أ . هـ .

ما رواه عن سهيل إلا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر وهو منكر الحديث . قال : وقد رواه سهيل عن عبد الرحمن بن أبي عباس عن عبد الله بن عمرو موقوفاً .

قلت : الموقوف على عبد الله بن عمرو بن العاص أشبه فإنه قد كان وجد يوم اليرموك ذابلتين [1] مملوءتين كتباً من علوم أهل الكتب فكان يحدث منهما بأشياء كثيرة من الاسرائيليات منها المعروف والمشهور والمنكور والمردود . .

فأما المعروف فتفرد به عبد الرحمن بن عبد الله بن عمرو بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب أبو القاسم المدني قاضيها ، قال فيه الامام احمد ليس بشيء وقد سمعته منه . ثم مزقت حديثه كان كذاباً وأحاديثه مناكير . وكذا ضعفه ابن معين وأبو زرعة وأبو حاتم . والجوزجاني والبخاري وأبو داود والنسائي ، وقال ابن عدي : عامة أحاديثه مناكير وأفظعها حديث البحر .

* * *

قال علماء التفسير المتكلمون على العروش والأطوال والبحار والأنهار

---

(١) الذابلة : اي جرابين أو محتويين كبيرين .

والجبال والمساحات وما في الأرض من المدن والخراب والعمارات والأقاليم السبعة الحقيقية في اصطلاحهم والأقاليم المتعددة العرفية وما في البلدان والأقاليم من الخواص والنباتات ، وما يوجد في كل قطر من صنوف المعادن والتجارات . . قالوا : الأرض مغمورة بالماء العظيم إلا مقدار الربع منها (١) وهو تسعون درجة والعناية الألهية اقتضت انحسار الماء عن هذا القدر منها لتعيش الحيوانات عليها وتنبت الزرع والثمار منها كما قال تعالى ﴿ والأرض وضعها للانام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام والحب ذو الحب والريحان فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ (٢) .

قالوا : المعمور من هذا البادي منها قريب الثلثين منه أو أكثر قليلاً . وهو خمس وتسعون درجة ، قالوا فالبحر المحيط الغربي ويقال له أوقيانوس وهو الذي يتاخم بلاد المغرب وفيه الجزائر الخالدات وبينها وبين ساحله عشر درج مسافة شهر تقريباً ، وهو بحر لا يمكن سلوكه ولا ركوبه لكثرة موجه واختلاف ما فيه من الرياح والأمواج وليس فيه صدر ولا يستخرج منه شيء ولا يسافر فيه لمتجر ولا لغيره وهو آخذ في ناحية الجنوب حتى يسامت الجبال القمر ، ويقال جبال القمر التي منها أصل منبع نيل مصر ويتجاوز خط الأستواء ثم يمتد شرقاً ويصير جنوبي الأرض . وفيه هناك جزائر الذابح وعلى سواحله حراب كثير ، ثم يمتد شرقاً وشمالاً حتى يتصل ببحر الصين والهند ، ثم يمتد شرقاً حتى يسامت نهاية الأرض الشرقية المكشوفة . وهناك بلاد الصين . ثم ينعطف في شرق الصين الى جهة الشمال حتى يجاوز بلاد الصين ويسامت (٣) سد يأجوج ومأجوج (٤) . ثم ينعطف ويستدير على أراض غير معلومة الأحوال . ثم يمتد مغرباً في شمال

---

(١) وهو صحيح وهذا ما ذهب إليه العلم الحديث . . وقيل الأرض في اتساع ما دامت الحياة . .

(٢) ١٠ - ١٣ : سورة الرحمن .

(٣) يسامت : أي يقارب .

(٤) يأجوج ومأجوج : « يقول ابن كثير : حكى الثوري رحمه الله في شرح مسلم عن بعض الناس أن يأجوج ومأجوج خلقوا من مني خرج من آدم فأختلط بالتراب فخلقوا من ذلك ، فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم وليس من حواء هذا قول غريب جداً لا دليل عليه » ا . هـ . وقد قال مثلها : « ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام كما ثبت في الصحيحين » ا . هـ . (١٠٣/٣) . ط الحلبي بالقاهرة .

الأرض ويسامت بلاد الروس ويتجاوزها ويعطف مغرباً وجنوباً ويستدير على الأرض ويعود إلى جهة الغرب وينبثق من الغربي إلى متن الأرض الزقاق التي ينتهي أقصاه الى اطراف الشام من الغرب ، ثم يأخذ في بلاد الروم حتى يتصل بالقسطنطينية [(١)] وغيرها من بلادهم .

وينبعث من المحيط الشرقي بحار أخر فيها جزائر كثيرة ، حتى إنه يقال ان في بحر الهند ألف جزيرة وسبعمائة جزيرة فيها مدن وعمارات سوى الجزائر العاطلة ويقال لها البحر الأخضر مشرقيه بحر الصين ، وغربيه بحر اليمن ، وشماله بحر الهند وجنوبيه غير معلوم .

وذكروا أن بين بحر الهند وبحر الصين جبالاً فاصلة بينها وفيها فجاج يسلك الراكب بينها لسيرها لهم الذي خلقها كما جعل مثلها في البر أيضاً قال الله تعالى : ﴿ وجعلنا في الأرض رواس أن تميد بكم وجعلنا فيها فجاجاً سُبلاً لعلهم يهتدون ﴾ [(٢)] .

وقد ذكر بطليموس أحد ملوك الهند في كتابه « المسمى (بالمجسطي) الذي عرب في زمان المأمون ، وهو أصل هذه العلوم أن البحار المتفجرة من المحيط الغربي والشرقي والجنوبي والشمالي كثيرة جداً . فمنها ما هو واحد ، ولكن يسمى بحسب البلاد المتآخم له ، فمن ذلك بحر القلزم ، والقلزم قرية على ساحله قريب من أيلة [(٣)] ، وبحر فارس وبحر الخزر وبحر ورنك وبحر

(١) القسطنطينية : « ويقال قسطنطينة باسقاط ياء النسبة ، قال ابن خر واذبة : كانت رومية دار ملك الروم وكان بها منهم تسعة عشر ملكاً ونزل بعمورية منهم ملكان ، وعمورية دون الخليج وبينها وبين القسطنطينية ستون ميلاً ، وملك بعدهما ملكان آخران بروحية ثم ملك أيضاً بروحية قسطنطين الأكبر ثم انتقل إلى بزنطية وبنى عليها سوراً وسماها قسطنطينية وهي دار ملكهم واسمها اسطنبول بينها وبين بلاد المسلمين البحر المالح . انظر معجم ابلدان (٤/٣٤٧) دار صادر ببيروت .

(٢) ٣١ : سورة الانبياء .

(٣) أيلة : بالفتح : مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام ، وقيل : هي آخر الحجاز وأول الشام واشتقاقها قد ذكر في اشتقاق ايلياء بعده ، قال أبو زيد : أيلة مدينة صغيرة غامرة بها زرع يسير ، وهي مدينة لليهود الذين حرم الله عليهم صيد السمك يوم السبت فخالفوا فمسخوا قردة وخنازير . وقال ابو المنذر : سميت بأيلة بنت مدن بن ابراهيم ، عليه السلام ، وقال أبو عبيدة : أيلة مدينة بين الفسطاط ومكة على شاطيء بحر القلزم تعد في بلاد الشام » ا . هـ . معجم البلدان (١/٢٩٢) .

الـروم وبحر بنـطش وبحر الأزرق ، مـدينة عـلى ساحله وهـو بحر القـرم أيضـاً ويتضـايق حتى يصب في بحـر الـروم عنـد جنـوبي القسـطنـطينيـة وهـو خليـج القسطنطينية ، ولهذا تسرع المراكب في سيرها من القرم إلى بحـر الـروم وتبطىء إذا جاءت من الاسكندرية الى القرم لاستقبالها جريان الماء . وهذا من العجائب في الدنيا فان كل ماء جار فهو حلو إلا هذا وكل بحر راكد فهو ملح زجاج إلا ما يذكر عن بحر الخزر وهو بحر جرجان وبحر طبرستان [1] . أن فيه قطعة كبيرة ماء حلواً فراتاً على ما أخبر به المسافرون عنه .

قال أهل الهيئة وهو بحـر مستديـر الشكل إلى الـطول ما هـو ، وقيل إنـه مثلث كالقلع [2] ؛ وليس هو متصلاً بشيء من البحر المحيط بل منفرد وحده ، وطوله ثمانمائة ميل وعرضه ستمائة وقيل : أكثر من ذلك . . والله أعلم .

ومن ذلك البحر الذي يخرج منه المد والجزر عند البصرة وفي بلاد المغـرب نظيره أيضاً يتزايـد الماء من أول الشهـر ولا يزال في زيـادة إلى تمام الليلة الـرابعة عشر منه وهو المد ، ثم يشرع في النقص وهو الجزء إلى آخر الشهر ، وقد ذكـروا تحـديد هـذه البحار ومبتـدأهـا ومنتهـاهـا وذكـروا مـا في الأرض من البحيـرات المجتمعة من الأنهار وغيرها من السيول وهي البطائح .

وذكـروا مـا في الأرض من الأنهار المشهـورة الكبـار ، وذكـروا ابتـداءهـا وانتهـاءها ، ولسنـا بصدد بسط ذلـك والتطويـل فيه وانمـا نتكلم عـلى مـا يتعلق بـالأنهار الوارد ذكـرها في الحـديث . وقد قـال الله تعـالى : ﴿ والله الـذي خلق السمـاوات والأرض وأنزل من السمـاء ماء فـاخـرج بـه من الثمـرات رزقـاً لكم

---

(١) بحر طبرستان : ويسمى بحر الخـزر : بالتحـريك وهـو بحر طبـرستان وجـرجان وآبسكـو كلها واحد ، وهو بحر واسع عظيم لا اتصال له بغيره ويسمى أيضاً : الخراساني والجبلي ، وربما سماه بعضهم « الدوارة الخرسانية ، وقـال حمزة : اسمـه بالفـارسية « زراه اكفـوردة ، ويسمى أيضاً : اكفودة وريـا وسماه ارسطاليس « أركـانيا » ويقـال أن دوران هذا البحـر ألف وخمسمائـة فرسـخ وقطره مائة فرسخ . . والله أعلم » عن معجم البلدان بتصرف (١/٣٤٢) .

(٢) القلع : أي الصخرة العظيمة أو الحصن المنيع . والجمع قلوع مثل أسد وأسود فهو جمع الجمـع قـال ابن السكيت وابن دريد القلعـة بالتحـريك ولا يجـوز الاسكان عن المصبـاح بتصـرف مـادة « قلعته »

وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الانسان لظلوم كفار ﴾ [1] .

ففي الصحيحين من طريق قتادة عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أن رسول الله ﷺ لما ذكر سدرة المنتهى قال فإذا يخرج من أصلها نهران باطنان ونهران ظاهران . فأما الباطنان ففي الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات . ا . هـ . وفي لفظ البخاري وعنصرها أي مادتهما أو شكلهما وعلى صفتهما وكفتهما وليس في الدنيا مما في الجنة الا سماوية .

وفي صحيح مسلم من حديث عبيد الله بن عمر بن خبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة » ا . هـ . [2] .

وقال الامام أحمد : حدثنا ابن غير ويزيد انبأنا محمد بن عمرو بن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« فجرت أربعة أنهار من الجنة الفرات والنيل وسيحان وجيحان » وهذا اسناد صحيح على شرط مسلم .

وكأن المراد والله أعلم من هذا أن هذه الأنهار تشبه انهار الجنة في صفائها وعذوبتها وجريانها ومن جنس تلك في هذه الصفات ونحوها كما قال في الحديث الآخر الذي رواه الترمذي وصححه من طريق سعيد بن عامر من محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « العجوة من الجنة وفيها شفاء من السم » أي تشبه تمر الجنة لا أنها مجتناه من الجنة ، فإن الحس يشهد بخلاف ذلك فيتعين أن المراد غيره ، وكذا قوله ﷺ « الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء » وكذا قوله « إذا اشتد الحمى فابردوها بالماء فان شدة الحر من فيح جهنم » . . وهكذا هذه الأنهار أصل منبعها مشاهد من الأرض .

* * *

---

(١) ٣٤ : سورة ابراهيم .

(٢) هي اسماء فقط . . تشبه مثيلاتها في الدنيا مع الفارق الشاسع . . وذلك لأن في الجنة ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . . والله اعلم .

نهر النيل : [(١)]

أما النيل : وهو النهر الـذي ليس في أنهار الدنيـا له نـظير في خفة ولـطافة وبعد مسراه من بين مبتدأه إلى منتهاه ، فمبتـدأه من الجبالُ القمـر أي البيض ومنهم من يقول جبال القمـر بالاضـافة إلى الكـوكب وهي في غربي الأرض وراء خط الاستـواء إلى الجانب الجنـوبي ، ويقال أنها حمـر ينبع من بينهـا عيـون ، ثم يجتمع من عشر مسيلات متباعدة . ثم يجتمع كل خمسة منها في بحر . ثم يخـرج منها أنهار ستة ، ثم تجتمع كلها في بحيـرة أخرى . ثم يخـرج منها نهر واحـد هو النيـل فيمر عـلى بلاد السـودان « الحبشة » ثم عـلى النـوبـة ومـدينتهـا العـظمى دمقلة [(٢)] ثم على اسوان ثم يفد على ديار مصر .

وقد تمل إليها من بلاد الحبشة زيادات أمـطارها واجتـرف من ترابهـا وهي محتاجة اليها معاً لأن مطرهاُ قليل لا يكفي زروعها وأشجارها . وتربتها رمـال لا تنبت شيئاً حتى يجيء النيل بزيادتـه وطينه فينبت فيـه ما يحتـاجون إليـه وهي من أحق الأراضي بدخولها في قولـه تعالى : ﴿ أو لم يـروا أنا نسـوق الماء إلى الأرض

(١) « لفظ نيل الذي عرف به النهر حتى اليوم ، فقد اطلقته عليه اليونـانيون وهـو مشتق من الكلمة اليونانية نيلوس ، وعنهم انتقل هذا الاسم إلى مختلف اللغات ».

ولكن ديودور الصقلي يـرى خلاف ذلـك حيث يقول « إن النهـر كان يـدعى من قبل ايجيبتـوس Aegyptus ثم أطلق عليه اسم النيل تخليـداً لذكـرى ملك يدعى نيلوس Nileusأعتـلى العرش بعـد الملك رعفيس بزمن قليـل . وأن نيلوس هذا قـام بحفر التـرع والقنوات التي أفـادت البلاد كثيراً فأطلقوا اسمه على النهر » وعندما فتح العرب مصر ظلوا يستعملون لفظ النيل للدلالـة على النهر ولم ينكروا أصله اليوناني ،وانهم اطلقوا عليه أحياناً اسم البحر ـ كما فعل المصـريون القـدماء من قبل ـ كذلك سموه الفيض نسبة لفيضانه السنوي . ولقد ذكر في القرآن الكريم بـاسم اليم » انظر نهر النيل في المكتبة العربية ـ محمد حمدي المناوي ـ ط الدار القومية المصرية سنة ١٩٦٦ م . « ويرى جونستون أن أصل الكلمة اليونانية نيلوس غير معروف وربمـا كانت مـأخوذة من الكلمـة الفارسية نيل èNil بمعنى أزرق » ا . هـ. المصدر السابق : وأما يـاقوت الحمـوي فيقول « وأمـا نيـل مصر فقـالُ حمزة هـو تعريب نيلوس من الـروميـة » ا . هـ . (٤/٨٦٢) ولكن عبـد اللطيف البغدادي يرى أنـه مشتق من فعل نـال . كما جـاء في تاج العـروس واللسان للنيـل معان كثيـرة منها : النيل والنائل ما نلته أي أصبته . والنيل بـالكسر نهر مصـر وكذلـك يعني السحاب . ا . هـ . « الافادة والاعتبار » (٤٥) .

(٢) دمقلة : بضم أوله ،سكون ثانية وضم قـانه وهي مـدينة كبيـرة في بلاد النـوبة ، قـال في معجم البلدان : « وهي منزلة ملك النوبة على شاطيء النيل ولها أسوار عالية لا ترام مبنيـة بالحجـارة ، وطول بلادها على النيل مسيرة ثمانية ليلة » ا . هـ . (١/٤٧٠) .

الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴾ [1] .

ثم يجاوز النيل مصر قليلاً فيفترق شطرين عند قرية على شاطئه يقال لها « شطوف »[2] فيمر العربي على رشيد ويصب في البحر المالح ، وأما الشرقي فتفترق أيضاً عند جوجر [3] فرقتين تمر الغربية منها على دمياط من غربيها ويصب في البحر ، والشرقية منها تمر على أشمون طناح [4] فيصب هناك في بحيرة شرقي دمياط . يقال لها بحيرة تنيس وبحيرة دمياط . وهذا بعد عظيم فيما بين مبتدأه ومنتهاه . ولهذا كان ألطف المياه [5] .

قال ابن سينا : له خصوصيات دون مياه سائر الأرض ، فمنها أنه أبعدها مسافة من مجراه إلى أقصاه ، ومنها أنه يجري على صخور ورمال ليس فيه خز [6] ولا طحلب ولا أوحال ، ومنها أنه لا يخضر فيه حجر ولا حصاة . . وما ذاك إلا لصحة مزاجه وحلاوته ولطافته . ومنها أن زيادته في أيام نقصان سائر الأنهار . ونقصانه في أيام زيادتها وكثرتها وأما ما يذكره بعضهم من أن أصل منبع النيل من مكان مرتفع أطلع عليه بعض الناس فرأى هناك هولاً عظيماً وجواري حساناً وأشياء غريبة ، وأن الذي أطلع على ذلك لا يمكنه الكلام بعد هذا . . فهو من خرافات المؤرخين وهذيانات الأفاكين .

* * *

وقد قال عبد الله بن لهيعة عن قيس بن الحجاج عمن حدثه قال : « لما فتح عمرو بن عاص مصر أتى أهلها إليه حين دخل شهر بؤنة من أشهر العجم « القبطية » فقالوا : « أيها الأمير : ان لنيلنا هذا سنة لا يجري إلا بها فقال لهم وما ذاك ؟ قالوا : إذا كان لثنتي عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عمدنا إلى

---

(١) ٢٧ : سورة السجدة .

(٢) قرب القاهرة .

(٣) جوجر « نعمتين وراء ، بليدة بمصر من جهة دمياط في كورة السمنودية » ا . هـ . معجم البلدان (٢/١٧٨)

(٤) قرية بالفوقية الآن ـ بمصر .

(٥) وهي حقيقة علمية يذكرها الباحثون ويؤكدونها فالماء الآسن الراكد . . واذا ما طال ذهاب الماء وجرى لطف ماؤه .

(٦) خز : الخز هو الحرير .

جارية بكر بين أبويها فأرضنا أبويها وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون ثم القيناها في هذا النيل ، فقال لهم عمرو : ان هذا لا يكون في الاسلام ، وان الاسلام يهدم ما قبله ، فأقاموا بؤنة والنيل لا يجري لا قليلاً ولا كثيراً وفي رواية فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى وهو لا يجري حتى هموا بالجلاء - فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك فكتب إليه عمر إنك قد اصبت بالذي فعلت واني قد بعثت إليك بطاقة داخل كتابي هذا فألقها في النيل ، فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها . (من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر « أما بعد » فإن كنت تجري من قبلك فلا تجر ، وان كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الله أن يجريك فألقى عمرو البطاقة في النيل فاصبح يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة وقطع الله تلك السنة عن أهل مصر الى اليوم .

* * *

الفرات :

وأما الفرات فاحملها من شمالي أرون الروم فتمر إلى قرب ملطيه ثم تمر على شحباط[1] . ثم على البيرة قبيلها ثم تشرق إلى بالس وقلعة جعبر [2] ثم الرقة ثم إلى الرحبة شماليها ثم إلى عانة ثم هيت[3] ثم الى الكوفة ثم تخرج الى فضاء العراق ، ويصب في بطائح كبار أي بحيرات وترد إليها ويخرج منها انهار كبار معروفة . .

وأما سيحان ويقال له سيحون [4] أيضاً فأوله من بلاد الروم ، ويجري

(١) شحباط : أمامي : شحيط من الأندلس وهي بعيدة عن القرار ، أما شميساط فلم أقف عليها . .

(٢) جعبر : على الفرات بين بالس والرقة قرب صفين ، وكانت قديماً تسمى دوسر فملكها رجل من بني قشير أعمى يقال له جعبر بن مالك (٢/١٤٢) معجم البلدان .

(٣) هيت : بالكسر وآخر تاء مثناة ، قال ابن السكيت سميت هُيت هيت لأنها في هوة من الأرض تقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ، وبها قبر عبد الله بن المبارك » ا . هـ . معجم البلدان (٥/٤٢١)

(٤) سيحان : بفتح أوله . وسكون ثانية ثم حاء مهملة وآخرة نون ، فعلان من ساح الماء يسيح إذا سأل وهو نهر كبير بالثغر من نواحي المصيصة ، وهو نهر أذنه بين انطاكية والروم يمر بأذنه ثم =

من الشمال والغرب الى الجنوب والشرق وهو غربي مجرى جيحان ودونه في القدر وهو ببلاد الأرمن التي تعرف اليوم ببلاد سيس وقد كانت في أول الدولة الاسلامية في أيدي المسلمين ، فلما تغلب الفاطميون على الديار المصرية ، وملكوا الشام وأعمالها عجزوا عن صونها من الأعداء فتغلب « نقفور الأرمني » على هذه البلاد وأعني بلاد سيس في حدود الثلاثمائة ، والى يومنا هذا ثم يجتمع سيحان وجيحان عند اذنه فيصيران نهراً واحداً . ثم يصبان في بحر الروم بين أياس وطرسوس (١) .

وأما جيحان ويقال له جيحون (٢) أيضاً ، وتسميه العامة جاهان . وأصله في بلاد الروم ، ويسير في بلاد سيس من الشمال إلى الجنوب ، وهو يقارب الفرات في القدر ، ثم يجتمع هو وسيحان عند اذنه فيصيران نهراً واحداً ، ثم يصبان في البحر عند اياس وطرسوس . والله أعلم .

* * *

﴿ فصل ﴾

قال الله تعالى : ﴿ الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي

= ينفصل عنها ستة أميال فيصب في بحر الروم واياه اراد المتنبي في مدح سيف الدولة :

أخو غزوات ما تغب سيوفه رقابهم إلا وسيحان حايد .

قال البلاذري : سيحان نهر بالبصرة كان للبرامكة وهم سحوة سيحان ا . هـ . معجم البلدان (: /٢٩٣)

(١) بفتح أوله وثانيه وسينين مهملتين بينهما واو ساكنة بوزن قربوس ، كلمة أعجمية رومية ولا يجوز سكون الراء إلا في ضرورة الشعر . نسب إليها كثير من الزهاد والعباد منهم أبو أمية محمد بن ابراهيم بن مسلم بن سالم الطرسوسي مات بها سنة ٢٧٣ هـ . وكذلك الحافظ أبو عيسى بن يزيد الطرسوس التميمي ثم السعدي وغيرهما . . انظر معجم البلدان (٢٩/٤) .

(٢) جيحون : بالفتح وهو اسم أعجمي ، وقد تعسف بعضهم فقال : هو من حاجة إذا استأصله ومنه الخطوب الجوائح . قال حمزة : أصل اسم جيحون بالفارسية هددن وهو اسم وادي خراسان على وسط مدينة يقال لها جيهان فنسبه الناس إليها وقالوا جيحون على عادتهم في قلب الألفاظ « انظر معجم البلدان » (١٩٦/٢) .

وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل والنهار أن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعتاب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فانبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هو قوم يعدلون أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواس وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بل اكثرهم لا يعلمون ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون يُنبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات وإن في ذلك لآية لقوم يتفكرون وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره إن في ذلك لأيات لقوم يعقلون ﴾ (٣) .

فذكر تعالى ما خلق في الأرض من الجبال والأشجار والثمار والسهول والأوعار وما خلق من صنوف المخلوقات من الجمادات والحيوانات في البراري والقفار والبر والبحار ما يدل على عظمته وقدرته وحكمته ورحمته بخلقه وما سهل لكل دابة من الرزق الذي هي محتاجة إليه في ليلها ونهارها وصيفها وشتائها وصباحها ومسائها كما قال تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾ (٤) . .

وقد روى الحافظ أبو يعلى عن" محمد بن المثنى بن عبيد بن واقد عن محمد بن عيسى بن كيسان عن محمد بن المنكوب عن جابر عن عمر بن الخطاب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « خلق الله ألف أمة منها ستمائة في البحر وأربعمائة في البر ، وأول شيء يهلك من هذه الأمم الجراد فاذا هلك تتابعت مثل النظام إذا قطع سلكه » ا . هـ .

(١) ٤ : سورة الرعد .
(٢) ٦٠ : سورة النمل .
(٣) ١١ : سورة النخل .
(٤) ٦ : سورة هود .

« عبيد بن واقد » أبو عباد البصري صعفه أبو حاتم وقال ابن عدي عامة ما يرويه لا يتابع عليه ، وشيخه أضعف منه . قال الفلاس والبخاري منكر الحديث ، وقال أبو زرعة لا ينبغي أن يحدث عنه . وضعفه أبن حبان والدارقطني وأنكر عليه ابن عدي هذا الحديث بعينه وغيره والله أعلم . .

وقال تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم امثالكم مَا فَرَّطنا في الكتاب من شيء ثمّ الى ربّهم يحشرون ﴾ [1] .

* * *

(١) ٣٨ : سورة الأنعام

خلق السموات

قد قدمنا أن خلق الأرض قبل خلق السماء كما قال تعالى : ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا اتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأعطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ (٣) . . فإن الدحى غير الخلق ، وهو بعد خلق السماء . .

وقال تعالى : ﴿ تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور . الذي خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من

---

(١) سبقت .
(٢) سبقت .
(٣) ١ - ٤ : الملك .

فطور . ثم ارجع البصر مرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ، ولقد زينا السماء بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ الله الذي خلق سبع سماوات والأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً . وهو الذي جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ﴾ وقال تعالى : ﴿ انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب وحوراً ولهم عذاب واصب . الا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ (٤) ، وقال تعالى : ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم . إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ﴾ (٥) وقال تعالى : ﴿ والسماء بنيناها بايد وإنا لموسعون ﴾ (٦) . وقال تعالى : ﴿ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون ﴾ (٧) وقال تعالى : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ (٨) ، وقال تعالى : ﴿ فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا

---

(١) سبقت .
(٢) ٢٦ : سورة البقرة .
(٣) سبقت .
(٤) ستأتي
(٥) ١٦ : سورة الحجر .
(٦) سبقت .
(٧) سبقت .
(٨) سبقت .

بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش فعيش الليل والنهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ (٢) والآيات في هذا كثيرة جداً وقد تكلمنا على كل منها في التفسير .

والمقصود أنه تعالى يخبر عن خلق السماوات ، وعظمة اتساعها وارتفاعها وأنها في غاية الحسن والبهاء والكمال والسناء كما قال تعالى : ﴿ والسماء ذات الحبك ﴾ (٣) أي الخلق الحسن . . وقال تعالى : ﴿ فارجع البصر هل ترى من فطور : ثم ارجع البصر مرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾ (٤) أي خاسئاً عن أن يرى فيها نقصاً أو خللاً وهو حسير : اي كليل ضعيف ولو نظر حتى يعي ويكل ويضعف لما أطلع على نقص فيها ولا عيب لأنه تعالى قد أحكم (٥) خلقها وزين بالكواكب افقها كما قال تعالى : ﴿ والسماء ذات البروج ﴾ أي النجوم . وقيل محال الحرس التي رمى منها بالشهب لمسترق السمع ولا منافاة بين القولين .

وقال تعالى : ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم ﴾ (٦) فذكر أنه زين منظرها بالكواكب الثوابت والسيارات ﴿ الشمس والقمر والنجوم الزاهرات ﴾ (٧) وأنه صان حوزتها عن حلول الشياطين بها وهذا زينة معنى ، فقال : ﴿ وحفظناها من كل شيطان رجيم ﴾ (٨) كما قال ﴿ انا زينا السماء بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان

---

(١) سبقت .
(٢) سبقت .
(٣) أي الزينة الظاهرة .
(٤) سبقت .
(٥) سبقت .
(٦) سبقت .
(٧) سبقت .
(٨) ستأتي

مارد لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ﴾ [1] .

قال البخاري في كتاب « بدء الخلق » : وقال قتادة « ولقد زينا السماء مصابيح » خلق هذه النجوم الثلاث جعلها زينة للسماء ورجوماً للشياطين وعلامات يهتدى بها فمن تأول بغير ذلك فقد أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف والاعلم له به . وهذا الذي قاله قتادة مصرح به في قوله تعالى : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وحولناها رجوماً للشياطين ﴾ وقال تعالى : وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ﴾ [2] فمن تكلف غير هذه الثلاث أي من علم أحكام ما تدل عليه حركاتها ومقارناتها في سيرها وأن ذلك يدل على حوادث ارضية فقد أخطأ . . وذلك أن أكثر كلامهم في هذا الباب ليس فيه إلا حدس [3] وظنونه كاذبة ودعاوي باطلة .

وذكر تعالى : أنه خلق سبع سماوات طباقاً أي واحدة فوق واحدة .

واختلف أصحاب الهيئة : هل هن متراً كملت أو متفاصلات بينهن خلاء على قولين . والصحيح الثاني لما قدمنا من حديث عبد الله بن عميرة عن الأحنف عن العباس في حديث الأوعال أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون كم بين السماء والأرض قلنا الله ورسوله أعلم . قال بينهما مسيرة خمسمائة عام ، ومن كل سماء إلى سماء خمسمائة سنة وكتف كل سماء خمسمائة سنة » ا . هـ الحديث بتمامه رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذي وحسنه .

وفي الصحيحين من حديث أنس في حديث الاسراء قال فيه : « ووجد في السماء الدنيا آدم فقال له جبريل هذا أبوك آدم فسلم عليه فرد عليه السلام . وقال مرحباً وأهلاً بابني نعم الابن أنت إلى أن قال ثم عرج إلى السماء الثانية . وكذا ذكر في الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة» ا . هـ . فدل على التفاضل بينها لقوله : ثم عرج بنا حتى أتينا السماء الثانية فاستفتح فقيل من هذا الحديث . وهذا يدل على ما قلناه . . والله أعلم .

---

(١) سبقت .
(٢) سيأتي
(٣) أي أوهام

وقد حكى ابن حزم وابن المنير وأبو الفرج ابن الجوزي وغير واحد من العلماء الاجماع على أن السماوات كرة مستديرة ، واستدل على ذلك بقوله ﴿ كل في فلك يسبحون ﴾ . قال الحسن يدورون ، وقال ابن عباس في فلكه مثل فلكة المغزل . قالوا ويدل على ذلك أن الشمس تغرب كل ليلة من المغرب ثم تطلع في آخرها من المشرق كما قال أمية بن أبي الصلت .

والشمس تطلع كل ليلة حمراء مطلع لونها متورد
تأبى فلا تبدو لنا في رسلها إلا معذبة وإلا تجلد

* * *

فأما الحديث الذي رواه البخاري حيث قال : حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن الأعمش عن ابراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس تدري أين تذهب قلت الله ورسوله أعلم قال : فانها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها . يقال لها أرجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى : ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ (١) .

هذا النقطة في بدء الخلق ورواه في التفسير . وفي التوحيد من حديث الأعمش أيضاً ، ورواه مسلم في الإيمان من طريق الأعمش ومن طريق يونس بن عبيد وأبو داود من طريق الحكم بن عتبة كلهم عن ابراهيم عن يزيد ابن شريك عن أبيه عن أبي ذر . وقال الترمذي : حسن صحيح .

إذا علم هذا فإنه حديث لا يعارض ما ذكرناه من استدارة الأفلاك التي هي السماوات على أشهر القولين ولا يدل على كروية العرش كما زعمه زاعمون . قد أبطلنا قولهم فيما سلف ولا يدل على أنها تصعد إلى فوق السماوات من جهتنا حتى تسجد تحت العرش بل هي تغرب عن أعيننا وهي مستمرة في فلكها الذي هي فيه وهو الرابع فيما قاله غير واحد من علماء التفسير .

---

(١) سبقت

وليس في الشرع ما ينفيه بل في الحس وهو الكسوفات ما يدل عليه ويقتضيه فإذا ذهبت فيه حتى تتوسطه وهو وقت نصف الليل مثلاً في اعتدال الزمان بحيث يكون بين القطبين الجنوبي والشمالي فانها تكون أبعد ما يكون من العرش لأنه مقبب ،[1] من جهة وجه العالم ، وهذا محل سجودها كما يناسبها كما أنها أقرب ما تكون من العرش وقت الزوال من جهتنا فاذا كانت في محل سجودها استأذنت الرب جل جلاله في طلوعها من الشرق فيؤذن لها فتبدو من جهة الشرق وهي مع ذلك كارهة لعصاة بني آدم أن تطلع عليهم ولهذا قال أمية :

تأبى فلا تبدو لنا في رسلها إلا معذبة والا تجلد .

فاذا كان الوقت الذي يريد الله طلوعها من جهة مغربها تسجد على عادتها وتستأذن في الطلوع فلا يؤذن لها ثم تسجد فلا يؤذن لها وتطول تلك الليلة كما ذكرنا في التفسير ، فتقول يا رب : ان الفجر قد اقترب وان المدى بعيد فيقال لها ارجعي من حيث جئت نتطلع من مغربها فاذا رآها الناس آمنوا جميعاً وذلك حين لا ينفع نفساً ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيراً ، وفسروا بذلك قوله تعالى : ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ﴾ وقيل لوقتها الذي تؤمر فيه تطلع من مغربها . وقيل مستقرها موضعها الذي تسجد فيه تحت العرش . وقيل منتهى سيرها وهو آخر الدنيا [2] .

وعن ابن عباس أنه قرأ « والشمس تجري لا مستقر لها » أي ليست تستقر فعلى هذا تسجد وهي سائرة . ولهذا قال تعالى : ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾[3] أي ليس سابقه بمسافة يتأخر ذاك عنه فيها بل إذا ذهب النهار جاء الليل في اثره متعقباً له كما قال في الآية الأخرى ﴿ يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم

---

(١) أي مثل القبة .

(٢) لعله : يريد آخر الأرض . . وما الشمس إلا كوكب صغير من كواكب الله ومن فضاء الله الواسع الذي لم يستطع الانسان بما أوتي من ادوات الاكتشاف ووسائل الوصول والأطلاع معرفتها حتى اليوم .

(٣) سبقت .

مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ﴾ (٢) أي يخلق هذا لهذا وهذا لهذا . . كما قال رسول الله ﷺ « إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم » ا . هـ .

فالزمان المحقق ينقسم إلى ليل ونهار وليس بينهما غيرها . ولهذا قال تعالى : ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ﴾ (٣) فيولج من هذا في هذا أي يأخذ من طول هذا في قصر هذا يعتدلان كما في أول فصل الربيع يكون الليل قبل ذلك طويلاً والنهار قصيراً فلا يزال الليل ينقض والنهار يتزايد حتى يعتدلا وهو أول الربيع ، ثم يشرع النهار يطول ويتزايد والليل يتناقض حتى يعتدلا أيضاً في أول فصل الخريف . ثم يشرع الليل يطول ويقصر النهار إلى آخر الخريف . ثم يتراجع النهار قليلاً قليلاً ويتناقص الليل شيئاً فشيئاً حتى يعتدلا في أول فصل الربيع كما قدمنا ، وهكذا في كل عام . ولهذا قال تعالى : ﴿ وله اختلاف الليل والنهار ﴾ (٤) أي هو المتصرف في ذلك كله الحاكم الذي لا يخالف ولا يمانع ولهذا يقول في ثلاث آيات عند ذكر السماوات والنجوم والليل والنهار ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ أي العزيز الذي قد قهر كل شيء ودان له كل شيء فلا يمانع ولا يغالب العليم بكل شيء فقدر كل شيء تقديراً على نظام لا يختلف ولا يضطرب .

وقد ثبت في الصحيحين من حديث سفيان بن عينية عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « قال الله يؤذيني ابن

---

(١) سبقت .
(٢) سبقت .
(٣) سبقت .
(٤) سبقت

آدم يسب الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار » ا . هـ وفي رواية فانا الدهر أقلب ليله ونهاره .

قال العلماء كالشافعي وأبي عبيد والقاسم بن سلام وغيرهما يسب الدهر أي يقول فعل بنا الدهر كذا يا خيبة الدهر ، أيتم الأولاد ، أرمل النساء . قال الله تعالى : ﴿ وأنا الدهر ﴾ أي أنا الدهر الذي يعنيه فإنه فاعل ذلك الذي اسنده إلى الدهر والدهر مخلوق ، وانما فعل هذا هو الله فهو يسب فاعل ذلك ويعتقده الدهر .

والله هو الفاعل لذلك الخالق لكل شيء المتصرف في كل شيء كما قال وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب ليله ونهاره وكما قال تعالى : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير . تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب . ما خلق الله ذلك إلا بالحق . يفصل الآيات لقوم يعلمون ان في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون ﴾ (٢) أي فاوت بين الشمس والقمر في نورهما وفي شكلهما وفي وقتهما وفي سيرهما فجعل هذا ضياء وهو ساطع الشمس برهان ساطع وضوء باهر ، والقمر نوراً أي أضعف من برهان الشمس وجعله مستفاداً من ضوئها وقدره منازل أي يطلع أول ليلة من الشهر صغيراً ضئيلاً قليل النور لقربه من الشمس وقلة مقابلته لها فبقدر مقابلته لها يكون نوره ولهذا في الليلة الثانية يكون أبعد منها بضعف ما كان في الليلة الأولى فيكون نوره بضعف النور أول ليلة (٣) .

---

(١) آل عمران : ٢٦ ، ٢٧ .
(٢) سبقت .
(٣) وذلك بانتقال الشمس والقمر اي دورانها . .

ثم كلما بعد ازداد نوره حتى يتكامل ابداره ليلة مقابلته إياها من المشرق وذي ليلة أربع عشرة من الشهر . ثم يشرع في النقص لاقترابه إليها من الجهة الأخرى إلى آخر الشهر فيستتر حتى يعود كما بدأ في أول الشهر الثاني . فبه تعرف الشهور ، وبالشمس تعرف الليالي والأيام وبذلك تعرف السنين والأعوام ولهذا قال تعالى : ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ وقال تعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا ﴾ وقال تعالى : ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ﴾ [1] .

وقد بسطنا القول على هذا كله في التفسير . فالكواكب التي في السماء منها سيارات وهي المتخيرة في اصطلاح علماء التفسير ، وهو علم غالبه صحيح بخلاف علم الاحكام وهي سبعة . القمر في سماء الدنيا ، وعطارد في الثانية ، والزهرة في الثالثة ، والشمس في الرابعة ، والمريخ في الخامسة ، والمشتري في السادسة وزحل في السابعة .

وبقية الكواكب ويسمونها الثوابت وهي عندهم في الفلك الثامن وهو الكرسي في اصطلاح كثير من المتأخرين . وقال آخرون . بل الكواكب كلها في السماء الدنيا ولا مانع من كون بعضها فوق بعض . وقد يستدل على هذا بقوله تعالى : ﴿ ولقد زينا السماء بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾ [2] . وبقوله : ﴿ فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ [3] . فخص سماء الدنيا من بينهن بزينة الكواكب فإن دل هذا على كونها مرصعة فيها فذاك وإلا فلا مانع مما قاله الآخرون . . والله أعلم [4] .

---

(١) ١٨٩ : سورة البقرة .
(٢) الملك : ٥ .
(٣) فصلت : ١٢ .
(٤) نعم هي مرصعة . . وقد اكتشف الانسان في هذا العصر الكثير والكثير . .

وعنـدهم أن الأفـلاك الثـوابت السبعـة بـل الثمـانيـة تـدور بمـا فيهـا من الكواكب الثوابت والسيارات تدور عـلى خلاف فلكـه من المغرب الى المشـرق . فالقمر يقطع فلكه في شهر والشمس تقطع فلكها وهو الرابع في سنة . فاذا كـان السيران ليس بينها تفاوت وحركاتها متقاربة كان قدر السماء الرابعـة بقدر السـماء الدنيا ثنتي عشرة مرة وزحل يقطع فلكـه وهو السـابع في ثـلاثين سنـة فعلى هـذا يكون بقدر السماء الدنيا ثلثمائة وستين مرة .

وقد تكلموا على مقادير أجرام هذه الكواكب وسيرها وحركاتها وتوسعوا في هـذه الأشياء حتى تعـدوا إلى علم الأحكام ومـا يترتب عـلى ذلـك من الحـوادث الأرضية ومما لا علم لكثير منهم . وقد كان اليونانيون الذين كانوا يسكنون الشام قبل زمن المسيح عليه السلام بدهور لهم في هذا كلام كثير يطول بسـطه ، وهم الذين بنوا مدينة دمشق وجعلوا لها أبواباً سبعة وجعلوا على رأس كل باب هيكلاً على صفة الكواكب السبعة . يعبدون كل واحد في هيكله ، ويدعونه بدعاء يأثره عنهم غـير واحد من أهـل التواريـخ وغيرهم . وذكـره صاحب السـر المكتوم في مخاطبة الشمس والقمر والنجوم وغيره من علماء الحرنانيين [1] (فـلاسفة حـران في قديم الزمان) . وقد كانوا مشركين يعبدون الكواكب السبعة وهم طائفـة من الصائبين . ولهذا قال الله تعالى : ﴿ ومن آياته الليل والنهـار والشمس والقمر لا تسجـدوا للشمس ولا للقمـر واسـجـدوا لله الـذي خلقـهن إن كـنتـم إيـاه تعبدون ﴾ [2] .

وقال تعالى : أخباراً عن الهدهد أنه قـال لسليمان عليـه السلام مخبـراً عن بلقيس وجنـودها ملكـة سبـأ في اليمن ومـا والاهـا ﴿ إني وجـدت امـرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عـرش عظيم وجـدتها وقـومها يسجـدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصـدهم عن السبيل فهم لا يهتـدون . أن لا يسجدوا لله الذي يخـرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم مـا يخفون ومـا

---

(١) نسبة إلى حران : وهي ببلاد فارس وينسب إليها العلامة ابن تيمية .
(٢) سبقت .

يعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ [١] .

وقال تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء ﴾ [٢] .

وقال تعالى : ﴿ أو لم ير إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون . ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ [٣] .

وقال تعالى : ﴿ ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ [٤] .

وقال تعالى : ﴿ وتسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾ [٥] والآيات في هذا كثيرة جداً .

ولما كان أشرف الأجرام المشاهدة في السماوات والأرض هي الكواكب ، وأشرفهن منظراً وأشرفهن معتبراً الشمس والقمر : استدل الخليل على بطلان آلهيته شيءومنهن . وذلك في قوله تعالى :﴿ فلما جن الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين ﴾ أي الغائبين ﴿ فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال : لئن لم يهدني ربي لأكون من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من

---

(١) سبقت .
(٢) سبقت .
(٣) سبقت .
(٤) سبقت .
(٥) سبقت .

المشركين ﴾ (١) . . يتبين بطريق البرهان القطعي أن هذه الأجرام المشاهدات من الكواكب والقمر والشمس لا يصلح شيء منها للالهية لأنها كلها مخلوقة مربوبة مدبرة مسخرة في سيرها لا تحيد عما خلقت له ولا تزيغ عنه إلا بتقدير متقن محرر لا تضطرب ولا تختلف وذلك دليل على كونها مربوبة مصنوعة مسخرة مقهورة ولهذا قال تعالى : ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم اياه تعبدون ﴾ (٢) .

- وثبت في الصحيحين من صلاة الكسوف من حديث ابن عمر وابن عباس وعائشة وغيرهم من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال خطبته يومئذ « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل وانهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته » ا . هـ .

وقال البخاري في « بدء الخلق » : حدثنا مسدد حدثنا عبد العزيز بن المختار حدثنا عبد الله الداناج حدثني أبوسلمة عن أبي هريرة عن النبى ﷺ قال : « الشمس والقمر مكوران يوم القيامة » ا. هـ .

انفرد به البخاري .

- وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار بأبسط من هذا السياق ، فقال : حدثنا ابراهيم بن زياد البغدادي حدثنا يونس بن محمد حدثنا عبد العزيز بن المختار عن عبد الله الداناج سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن زمن خالد بن عبد الله القسري في هذا المسجد « مسجد الكوفة » وجاء الحسن فجلس إليه فحدث قال فحدثنا أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن الشمس والقمر ثوران في النار يوم القيامة فقال الحسن وما دينهما فقال أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول ما دينهما » ثم قال البزار لا يروى عن أبي هريرة إلا من هذا الوجه ولم يرو عبد الله الداناج عن أبي سلمة سوى هذا الحديث .

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي من طريق يزيد الرقاش وهو ضعيف عن

(١) سبقت .
(٢) سبقت .

أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « الشمس والقمر ثوران عقيران في النار » وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج وعمر بن عبد الله الأزدي حدثنا أبو أسامة عن مجالد عن شيخ منّ بجيلة عن ابن عباس « إذا الشمس كورت » قال : يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة في البحر ويبعث الله ريحاً وبوراً فتضرمها ناراً . فدلت هذه الآثار على أن الشمس والقمر من مخلوقات الله خلقها الله مما أراد . ثم يفعل فيها ما يشاء . وله الحجة الدافعة والحكمة البالغة فلا يسأل عما يفعل لعلمة وحكمته وقدرته ومشيئته النافذة وحكمه الذي لا يرد ولا يمانع ولا يغالب . وما أحسن ما أورده الامام محمد بن اسحاق بن يسار في أول كتاب « السيرة » من الشعر لزيد بن عمرو بن نفيل في خلق السماء والأرض والشمس والقمر وغير ذلك . قال ابن هشام : هي لأمية بن أبي الصلت .

إلى الله أهدى مدحتي وثنائيا ... وقولاً رضياً لا يني الدهر باقيا
إلى الملك الأعلى الذي ليس فوقه ... إله ولا رب يكون مدانيا
ألا أيها الانسان اياك والردى ... فإنك لا تخفى عن الله خافياً
إياك لا تجعل مع الله غيره ... فإن سبيل الرشد أصبح باديا
حنانيك إن الجن كانت رجاءهم ... وأنت الهي ربنا ورجائيا
رضيت بك اللهم رباً فلن أرى ... أدين إلهاً غيرك الله ثانيا
وأنت الذي من فضل من ورحمة ... بعثت إلي موسى رسولاً مناديا
فقلت له اذهب وهارون فادعوا ... إلى الله فرعون الذي كان طاغيا
وقولا له آأنت سويت هذه ... بلا وتد حتى اطمأنت كما هيا
وقولا له آ أنت رفعت هذه ... بلا عمد ارفق إذاً بك بانيا
وقولا له آ أنت سويت وسطها ... منيراً إذا ماجنه الليل هاديا
وقولاً له من يرسل الشمس غدوة ... فيصبح ما حث من الأرض ضاحيا
وقولا له من ينبت الحب في الثرى ... فيصبح منه البقل يهتز رابيا
ويخرج منه حبه في رؤسه ... وفي ذاك آيات لمن كان واعيا
وأنت بفضل منك نجيت يونساً ... وقد بات في أضعاف حوت لياليا

واني لـو سبحت بـاسمـك ربنـا لاكـثر إلا مـا غـفـرت خـطائيـا
فـرب الـعبـاد الله سيبـاً ورحمـة عـليّ وبـارك في بـنّي ومـالـيـا

* * *

فاذا علم هذا : فالكواكب التي في السماء من الثوابت والسيارات الجميع مخلوقه خلقها الله تعالى كما قال : ﴿ وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ (١) .

وأما ما يذكره كثير من المفسرين في قصة هاروت وماروت (٢) من أن الزهرة كانت امرأة فراوداها عن نفسها فأبت إلا أن يعلماها الأسم الأعظم فعلماها فقالته فرفعت كوكبا إلى السماء . فهذا أظنه من وضع الاسرائيلين . . وان كان قد أخرجه كعب الأحبار وتلقاه عنه طائفة من السَلف فذكروه على سبيل الحكاية والتحديث عن بني اسرائيل .

وقد روى الامام أحمد وابن حبان في صحيحه في ذلك حديثاً رواه أحمد بن يحيى بن بكير عن زهير بن محمد عن موسى بن جبير عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ وذكر القصة بطولها . وفيه فمثلت لهما الزهرة أمرأة من أحسن البشر فجاءتها فسألاها نفسها وذكر القصة .

وقد رواه عبد الرزاق في تفسيره عن الثوري عن موسى بن عقبة عن سالم عن كعب الأحبار ، وهذا أصح وأثبت . وقد روى الحاكم في مستدركه وابن أبي حاتم في تفسيره عن ابن عباس فذكره وقال فيه : وفي ذلك الزمان امرأة حسنها في النساء كحسن الزهرة في سائر الكواكب وذكر تمامه ، وهذا أحسن لفظ روي في هذه القصة . . والله أعلم .

وهكذا الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن عبد الملك الواسطي حدثنا يزيد بن هارون حدثنا مبشر بن عبيد عن يزيد بن أسلم

---

(١) سبقت .

(٢) قيل كانا ملكين . . وقيل هما من بني آدم . . وقيل رفعهما الله بين السماء والأرض إلى وقتنا هذا وحتى تقوم الساعة . . والله اعلم .

عن ابن عمر عن النبي ﷺ وحدثنا عمرو بن عيسى حدثنا عبد الأعلى حدثنا ابراهيم بن يزيد عن عمرو بن دينار عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ ذكر سهيلاً فقال : « كان عشاراً ظلوماً فمسخه الله شهاباً » ثم قال : لم يروه عن زيد بن أسلم إلا مبشر بن عبيد وهو ضعيف الحديث ولا عن عمرو بن دينار إلا ابراهيم بن زيد وهو لين الحديث .

وانما ذكرناه على ما فيه من علة لأنا لم نحفظه إلا من هذين الوجهين . .

(قلت) أما مبشر بن عبيد القرشي فهو أبو حفص الحمصي وأصله من الكوفة . فقد ضعفه الجميع . وقال فيه الامام أحمد الدارقطني : كان يضع الحديث ويكذب ، وأما ابراهيم بن يزيد فهو الخوزي وهو ضعيف باتفاقهم . قال فيه أحمد والنسائي متروك وقال ابن معين ليس بثقة وليس بشيء . وقال البخاري سكتوا عنه . وقال أبو حاتم وأبو زرعة منكر الحديث ضعيف الحديث . ومثل هذا الاسناد لا يثبت به شيء وبالكلية . واذا أحسنا الظن مكنا هذا من أخبار بني اسرائيل كما تقدم من رواية ابن عمر عن كعب الأحبار . ويكون من خرافاتهم التي لا يعول عليها . . والله أعلم .

* * *

المجرة وقوس قزح

قال أبو القاسم الطبراني حدثناعلي بن عبد العزيز حدثنا عارم أبو النعمان حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن هرقل كتب إلى معاوية وقال إن كان بقي فيهم شيء من النبوة فسيخبرني عما أسألهم عنه . قال : فكتب إليه يسأله عن المجرة وعن القوس وعن بقعة لم تصبها الشمس إلا ساعة واحدة . .

قال : فلما أتى معاوية الكتاب والرسول قال : إن هذا الشيء ما كنت آبه له أن أسأل عنه إلى يومي هذا من لهذا ؟ . . قيل ابن عباس فطوى معاوية كتاب هرقل فبعث به الى ابن عباس فكتب إليه :

« أن القوس أمان لأهل الأرض من الغرق . والمجرة باب السماء الذي تنشق منه الأرض . وأما البقعة التي لم تصبها الشمس إلا ساعة من النهار فالبحر الذي أخرج عن بني اسرائيل وهذا اسناد صحيح إلى ابن عباس رضى الله عنه .

فأما الحديث الذي رواه الطبراني حدثنا ابو الزنباع روح بن الفرج حدثنا ابراهيم بن مخلد حدثنا الفضل بن المختار عن محمد بن مسلم الطائفي عن ابن أبي يحيى عن مجاهد عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « يا معاذ إني مرسلك إلى قوم أهل كتاب فإذا سئلت عن المجرة التي في السماء فقل هي لعاب حية تحت العرش » فانه حديث منكر جداً بل الأشبه أنه موضوع ، ورواية الفضل بن المختار هذا أبو سهل البصري . ثم انتقل إلى مصر قال فيه أبو حاتم الرازي هو مجهول حدث بالأباطيل . وقال الحافظ أبو الفتح الأزدي منكر الحديث جداً . وقال ابن عدي لا يتابع على أحاديثه لا متناً ولا اسناداً . وقال الله تعالى ﴿ هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشىء السحاب الثقال ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل من السماء من رزق فاحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ (٢) .

- وروى الامام أحمد عن يزيد بن هارون عن ابراهيم بن سعد عن أبيه عن شيخ من بني غفار قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله ينشىء السحاب فينطق أحسن النطق ويضحك أحسن الضحك » .

- وروى موسى بن عبيدة بن سعد بن ابراهيم أنه قال : إن نطقه الرعد

---

(١) سبقت .
(٢) سبقت .

وضحكه البرق . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا هشام عن عبيد الله الرازي عن محمد بن مسلم قال : بلغنا أن البرق ملك له أربعة وجوه : وجه انسان ووجه ثور ووجه نسر ووجه أسد ، فاذا وضع بذنبه فذاك البرق .

ـ وقد روى الامام أحمد والترمذي والنسائي والبخاري في كتاب الأدب ، والحاكم في مستدركه من حديث الحجاج بن أرطأة : حدثني ابن مطر عن سالم عن أبيه قال : كان رسول ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال : « اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك » .

ـ وروى ابن جرير من حديث ليث عن رجل عن أبي هريرة رفعه كان إذا سمع الرعد قال : « سبحان من يسبح الرعد بحمده » وعن علي أنه كان يقول : « سبحان من سبحت له » وكذا عن ابن عباس والأسودين بن يزيد وطاوس وغيرهم .

وروى مالك عن عبد الله بن عمر أنه كان اذا سمع الرعد ترك الحديث وقال سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويقول : « إن هذا وعيد شديد لأهل الأرض » .

ـ وروى الامام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : قال ربكم ﴿ لو أن عبيدي أطاعوني لاسقيتهم المطر بالليل وأطلقت عليهم الشمس بالنهار ولما أسمعتهم صوت الرعد . . فأذكروا الله فإنه لا يصيب ذاكراً ﴾ .

وكل هذا مبسوط في التفسير ولله الحمد والمنة .

* * *

خلق الملائكة وصفاتهم

قال الله تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إني اله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ، ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ فان استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسئمون ﴾ (٤) .

---

(١) ٦ ، ٧ : سورة الانبياء .

(٢) سبقت .

(٣) ستأتي .

(٤) ستأتي .

وقال تعالى : ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم . إنا لنحن الصادقون وانا لنحن المسبحون ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً ﴾ [2] .

وقال تعالى : ﴿ وان عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾ [3] .

وقال تعالى : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ [4] .

وقال تعالى : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ [5] .

وقال تعالى : ﴿ الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾ [6] .

وقال تعالى : ﴿ يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا . الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً ﴾ [7] .

وقال تعالى : ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً ﴾ [8] .

---

(١) ستأتي .
(٢) ٦٤ : سورة مريم .
(٣) ستأتي .
(٤) ستأتي
(٥) ستأتي .
(٦) سبقت .
(٧) ستأتي .
(٨) ستأتي .

وقال تعالى : ﴿ من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ (٢) .

والآيات في ذكر الملائكة كثيرة جداً يصفهم تعالى بالقوة في العبادة وفي الخلق وحسن المنظر وعظمة الأشغال وقوة الشكل في الصور المتعددة كما قال تعالى : ﴿ ولما جاءت رسلنا لوطاسىء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب . وجاء قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات ﴾ (٣) الآيات . . فذكرنا في التفسير ما ذكره غير واحد من العلماء من أن الملائكة تبدو لهم في صورة شباب حسان امتحاناً وأختباراً حتى قامت على قوم لوط الحجة وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر . وكذلك كان جبريل يأتي الى النبي ﷺ في صفات متعددة فتارة يأتي في صورة دحية بن خليفة الكلبي ، وتارة يأتي في صورة أعرابي ، وتارة يأتي في صورته التي خلق عليها : له ستمائة جناح ما بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب كما رآه على هذه الصفة مرتين . مرة منهبطاً من السماء إلى الأرض . وتارة عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى . . وهو قوله : ﴿ علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى ﴾ (٤) . أي جبريل كما ذكرناه عن غير واحد من الصحابة منهم ابن مسعود وابو هريرة وأبو ذر وعائشة « فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى » (٥) . أي الى عبد الله محمد ﷺ ثم قال : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى ﴾ (٦) .

---

(١) ستأتي .
(٢) ستأتي .
(٣) ٧٧ : سورة هود .
(٤) من ٥ : ٩ : سورة النجم .
(٥) ٩ ، ١٠ : سورة النجم .
(٦) ١٦ ، ١٧ : سورة النجم .

وقد ذكرنا في حديث الاسراء في سورة « سبحان » أن سدرة المنتهى في السماء السابعة ، وفي رواية في السادسة أي أصلها وفروعها في السابعة فلما غشيها من أمر الله ما غشيها ، قيل غشيها نور الرب جل جلاله . وقيل غشيها فراش من ذهب ، وقيل : غشيها ألوان متعددة كثيرة غير منحصرة . وقيل غشيها الملائكة مثل الغربان ، وقيل غشيها من نور الله تعالى فلا يستطيع أحد أن ينعتها . أي من حسنها وبهائها ، ولا منافاة بين هذه الأقوال إذ الجميع ممكن حصوله في حال واحدة .

وذكرنا أن رسول الله ﷺ قال : « ثم رفعت لي سدرة المنتهى فإذا نبتها كالقلال (١) .

وفي رواية كقلال هجر وإذا ورقها كآذان الفيلة واذا يخرج من أصلها نهران باطنان ، ونهران ظاهران ، فأما الباطنان ففي الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات » ا . هـ .

وقد تقدم الكلام على هذا في ذكر خلق الأرض وما فيها من البحار والأنهار .

وفيه ثم رفع لي البيت المعمور ، وإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم وذكر أنه وجد ابراهيم الخليل عليه السلام مستنداً ظهره إلى البيت المعمور . وذكرنا وجه المناسبة في هذا أن البيت المعمور هو في السماء السابعة بمنزلة الكعبة في الأرض .

ـ وقد روى سفيان الثوري وشعبة وأبو الأحوص عن سماك بن حرب عن خالد بن عرعرة أن ابن الكوا سأل علياً بن أبي طالب عن البيت المعمور فقال هو مسجد في السماء يقال له الضراح ، وهو بحيال الكعبة من فوقها . حرمته في السماء كحرمة البيت في الأرض يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة لا

(١) جاء أن القلال أعالي الجبال . . وتسمى الجبال قلال . . واظن ـ والله أعلم ـ أنه المقصود .

يعودون إليه أبداً . ا . هـ . . وهكذا روى علي بن ربيعة وأبو الطفيل عن علي مثله .

وقال الطبراني أنبأنا الحسن بن علوية القطان حدثنا اسماعيل بن عيسى العطار حدثنا اسحاق بن بشر أبو حذيفة حدثنا ابن جريج عن صفوان بن سليم عن كريب عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « البيت المعمور في السماء يقال له الضراح وهو على مثل البيت الحرام بحياله لو سقط عليه يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يرونه قط فإن له في السماء حرمة على قدر قلة - يعني في الأرض » . ا . هـ .

وهكذا قال العوفى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والربيع بن أنس والسدي وغير واحد ، وقال قتادة ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال يوماً : هل تدرون ما البيت المعمور ؟ قالوا الله ورسوله أعلم . قال قال : مسجد في السماء . بحيال الكعبة لو خر لخر عليها يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم » ا . هـ . وزعم الضحاك أنه تعمره طائفة من الملائكة يقال لهم الجن من قبيلة ابليس لعنه الله كان يقول سدنته وخدامه منهم . . والله اعلم .

وقال آخرون : في كل سماء بيت يعمره ملائكته بالعبادة فيه ويفدون اليه بالتوبة والبدل كما يعمر أهل الأرض البيت العتيق بالحج في كل عام والاعتمار في كل وقت والطواف والصلاة في كل آن . قال سعيد بن يحيى الأموي في أوائل كتابه المغازي . حدثنا أبو عبيد في حديث مجاهد أن الحرم حرم مناه « يعني قدره » من السماوات السبع والأرض السبع وأنه رابع أربعة عشر بيتاً في كل سماء بيت وفي كل أرض بيت لو سقطت سقط بعضها على بعض ا . هـ . ثم روى مجاهد قال مناه أي مقابله وهو حرف مقصور . ثم قال حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي سليمان مؤذن الحجاج سمعت عبد الله بن عمرو يقول : « إن الحرم محرم في السماوات السبع مقداره من الأرض - وإن بيت المقدس مقدس في السماوات السبع مقداره من الأرض كما قال بعض الشعراء .

إن الذي سمك السماء بنى لها بيتاً دعائمه أشد وأطولُ

واسم البيت الذي في السماء بيت العزة ، واسم الملك الذي هو مقدم الملائكة فيها اسماعيل .

فعلى هذا يكون السبعون ألفاً من الملائكة الذين يدخلون في كل يوم إلى البيت المعمور ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم « أي لا يحصل لهم نوبة فيه إلى آخر الدهر » يكونون من سكان السماء السابعة وحدها . ولهذا قال تعالى : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ [1] .

وقال الامام أحمد : حدثنا أسود بن عامر حدثنا اسرائيل عن ابراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن مورق عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ: « اني ارى ما لا ترون واسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولما تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عز وجل » فقال أبو ذر « والله لوددت أني شجرة تعضد » ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث اسرائيل فقال الترمذي : حسن غريب ، ويروى عن أبي ذر موقوفاً .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا حسين بن عرفه المصري حدثنا عروة بن عمران الرقى حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عبد الكريم بن مالك عن عطاء بن أبي رباح عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ « ما في السماوات موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا فيه ملك قائم أو ملك ساجد أو ملك راكع فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعاً ما عبدناك حق عبادتك إلا أنا نشرك بك شيئاً » ا. هـ . فدل هذان الحديثان على أنه ما من موضع في السماوات السبع إلا وهو مشغول بالملائكة في صنوف من العبادة . منهم من هو قائم إبداً ، ومنهم من هو قائم راكع أبداً ومنهم من هو ساجداً أبداً ومنهم من هو في صنوف أخر . . والله أعلم بها .

من صفات الملائكة :

وهم دائمون في عبادتهم وتسبيحهم وأذكارهم وأعمالهم التي أمرهم الله

(١) ٣١ : المدثر .

بها ، ولهم منازل عند ربهم كما قال تعالى : ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم . وانا لنحن الصادقون . وانا لنحن المسبحون ﴾ (١) .

وقال ﷺ : « ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها . قالوا وكيف يصفون عن ربهم يا رسول الله قال يكملون الصف الأول ويتراصون في الصف » ا. هـ .

وقال : « فضلنا على الناس بثلاث . جعلت لنا الأرض مسجداً وتربتها لنا طهوراً وجعلت صفوفنا كصفوف الملائكة » وكذلك يأتون يوم القيامة بين يدي الرب جل جلاله صفوفاً كما قال تعالى : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾ (٢) .

ـ والمراد ههنا بنو آدم قاله ابن عباس والحسن وقتادة ، وقيل ضرب من الملائكة يشبهون ابن جبير والضحاك . وقيل ملك يقال له الروح بقدر جميع المخلوقات . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله : « يوم يقوم الروح » قال هو ملك أعظم الملائكة خلقاً . وقال ابن جرير حدثني محمد بن خلف العسقلاني حدثنا داود بن الجراح من أبي حمزة عن الشعبي عن علقمة عن ابن مسعود قال : الروح في السماء الرابعة هو أعظم السماوات والجبال ومن الملائكة يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً من الملائكة يجيء يوم القيامة صفاً وحده . وهذا غريب جداً .

وقال الطبراني حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكيم المصري حدثنا ابن وهب بن رزق أبو هبيرة حدثنا بشر بن بكر حدثنا الاوزاعي حدثنا عطاء عن عبد الله بن عباس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن لله ملكاً لو قيل له التقم السماوات والأرضين بلقمة واحدة لفعل . تسبيحه سبحانك حيث كنت » ا . هـ . وهذا أيضاً حديث غريب جداً ، وقد يكون موقوفاً . وذكرنا في صفة حملة العرش عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « اذن لي أن

---

(١) ١١٤ ـ ١١٦ : سورة الصافات .
(٢) ٣٨ : سورة النبأ .

أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش إن ما بين شحمة أذنه الى عاتقه مسيرة سبعمائة عام » رواه أبو داود وابن أبي حاتم ولفظه محقق الطير سبعمائة عام .

وقد ورد في صفة جبريل عليه السلام أمر عظيم ، قال الله تعالى : ﴿ علمه شديد القوى ﴾ (١) . قالوا كان من شدة قوته أنه رفع مدائن قوم لوط وكن سبعاً . بمن فيها من الأمم وكانوا قريباً من أربعمائة ألف وما معهم من الدواب والحيوانات وما لتلك المدن من الأراضي والمعتملات (٢) . والعمارات وغير ذلك ، رفع ذلك كله على طرف جناحيه حتى بلغ بهن عنان السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب وصياح ديكتهم ثم قلبها فجعل عاليها سافلها فهو شديد القوى .

وقوله « ذو مرة » أي خلق حسن وبهاء وسناء ، كما قال في الآية الأخرى ﴿ انه لقول رسول كريم ﴾. أي جبريل رسول من الله كريم أي حسن المنظر ذي قوة أي له قوة وبأس شديد عند ذي العرش مكين أي له مكانة ومنزلة عالية رفيعة عند الله ذي العرش المجيد مطاع ثم أي مطاع في الملأ الأعلى أمين أي ذي أماتة عظيمة ولهذا كان هو السفير بين الله وبين أنبيائه عليهم السلام الذي ينزل عليهم بالوحى . فيه الأخبار الصادقة والشرائع العادلة .

وقد كان يأتي الى رسول الله ﷺ وينزل عليه في صفات متعددة ، كما قدمنا ، وقد رآه على صفته التي خلقه الله عليها مّرتين ، له ستمائة جناح كما روى البخاري عن طلق بن غنام عن زائدة الشيباني قال : سألت زراً عن قوله ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ (٣) ، قال حدثنا عبد الله يعني ابن مسعود أن محمداً ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح .

---

(١) ٥ : سورة النجم .
(٢) أي كل أجزاء الأرض .
(٣) ١٠ : سورة النجم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن آدم حدثنا شريك عن جامع بن راشد عن أبي وائل عن عبد الله قال رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح كل جناح منها قد سد الأفق يسقط من جناحه التهاويل [1] من الدر والياقوت ما الله به عليم .

وقال أحمد أيضاً حدثنا حسن بن موسى حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن ابن مسعود في هذه الآية : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ﴾ [2] . قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت جبريل وله ستمائة جناح ينتشر من ريشه التهاويل الدر والياقوت » ا . هـ .

وقال أحمد : حدثنا زيد بن الحباب حدثنا الحسين حدثني عاصم بن بهدلة سمعت شقيق بن سلمة يقول : سمعت ابن مسعود يقول : قال رسول الله ﷺ « رأيت جبريل على السدرة المنتهى وله ستمائة جناح فسألت عاصماً عن الاجنحة فأبى أن يخبرني قال فأخبرني بعض أصحابه أن الجناح ما بين المشرق والمغرب » ا . هـ . وهذه اسانيد انفرد بها أحمد .

وقال أحمد حدثنا زيد بن الحباب حدثني حسين بن حصين حدثني شقيق سمعت ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « اتاني جبريل في خضر تعلق به الدر » ا . هـ . اسناده صحيح .

وقال ابن جرير حدثنا ابن بزيغ البغدادي قال حدثنا اسحاق بن منصور قال : حدثنا اسرائيل عن أبي أسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله : ما كذب الفؤاد ما رأى قال : رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه حلتا رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض » أ . هـ . إسناد جيد قوي .

وفي الصحيحين من حديث عامر الشعبي عن مسروق قال : كنت عند عائشة فقلت : أليس الله يقول : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ [3] . فقالت أنا

---

(١) ا الكثير التي لا تقدر .
(٢) ١٣ ، ١٤ : النجم .
(٣) ١٣ : سورة النجم .

أول هـذه الأمة سـأل رسول الله ﷺ عنهـا فقال : « إنمـا ذاك جبـريـل لم يـره في صورته التي خلق عليها إلا مرتـين رآه منهبطاً من السماء إلى الأرض ساداً عـظم خلقه ما بين السماء والأرض .

وقال البخاري : حـدثنا ابـو نعيم حدثنـا عمر بن ذر ، وحـدثني يحيى بن جعفر حدثنا وكيع عن ابن ذر عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قـال : قال رسول الله ﷺ لجبريل الا تزورنا اكثر مما تزورنا قال فنزلت ﴿ ومـا تتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا ﴾ الآية (١) .

وروى البخـاري من حديث الـزهري عن عبيـد الله بن عبـد الله عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ أجـود الناس وكـان أجود مـا يكون في رمضـان حين يلقاه جبريل وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن فرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة . ا . هـ .

وقال البخاري : حـدثنا عتيبـة حدثنـا الليث عن ابن شهاب أن عمـر بن عبد العزيز أخر العصر شيئاً فقـال له عروة أما إن جبـريل قـد نزل فصـلى أمام رسـول الله ﷺ فقال عمـر أعلم ما تقـول يا عـروة قـال : سمعت بشـير بن أبي مسعـود يقـول : سمعت أبـا مسعـود يقـول : سمعت رسـول الله ﷺ يقـول : « نزل جبـريل فأمن فصليت معه ثم صليت معه ثم صليت معه يحسب باصـابعه خمس صلوات .

صفة اسرافيل

ومن صفة اسرافيل عليه السلام وهو أحد حملة العرش وهو الذي ينفخ في الصور بأمر ربه نفخات ثلاثة . أولاهن نفخة الفـزع ، والثانيـة نفخة الصعق ، والثالثة نفخـة البعث (٢) . قرن ينفـخ فيه (٣) ، كـل ذرة منه كـما بين السـماء والأرض ، وفيه موضع أرواح العباد حين يأمره الله بالنفخ للبعث فإذا نفخ تخرج

(١) ٦٤ : سورة مريم .
(٢) انظر التذكرة .
(٣) انظر التذكرة للقرطبي . . والروح لابن القيم ، والحياة بعد الموت للمحقق .

الأرواح تتوهج فيقول الرب جل جلاله وعزتي وجلالي لترجعن كل روح ألى البدن الذي كانت تعمره في الدنيا فتدخل على الأجساد في قبورها فتدب فيها كما يدب السم في اللديغ فتحي الأجساد وتنشق عنهم الأحداث فيخرجن منها سراعاً إلى مقام المحشر (١) .

ولهذا قال رسول الله ﷺ : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له . قالوا كيف نقول يا رسول الله ، قال قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل . على الله توكلنا » ا هـ . رواه احمد والترمذي من حديث عطية العوفى عن أبي سعيد الخدري .

وقال الامام أحمد : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن سعد الطائي عن عطية العوفي عن أبي سعيد ، وقال الامام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن سعد الطائي عن عطية العوفي عن أبي سعيد قال : ذكر رسول الله ﷺ صاحب الصور فقال عن يمينه جبريل وعن يساره ميكائيل عليهم السلام .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي حدثنا محمد بن عمر أن أبن أبي ليلى حدثني عن أبي ليلى عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس ، قال : بينا رسول الله ﷺ ومعه جبريل يناجيه إذ انشق أفق السماء فأقبل اسرافيل يدنو من الأرض وميخايل فإذا ملك قد مثل بين يدي النبي ﷺ فقال يا محمد : إن الله يأمرك أن تختار بين نبي عبد أو ملك نبي قال فأشار جبريل إلي بيده « أن تواضع » فعرفت أنه لي ناصح فقلت : عبد نبي مفرج ذلك الملك إلى السماء فقلت يا جبريل قد كنت أردت أن أسألك عن هذا فرأيت من حالك ما شغلني عن المسألة فمن هذا يا جبريل ، فقال هذا اسرافيل عليه السلام خلقه الله يوم خلقه بين يديه صافاً قدميه لا يرفع طرفه بينه وبين الرب سبعون نوراً ما منها من برر يكاد يدنو منه إلا احترق ، بين يديه لوح فإذا أذن الله في شيء من السماء أو في الأرض ارتفع ذلك اللوح فضرب جبهته فينظر فان كان من عملي أمرني به وان كان من عمل ميكائيل أمره به وان كان من عمل ملك الموت أمره

---

(١) وهذا هو البعث الثاني . . انظر الحياة بعد الموت للمحقق .

به . قلت يا جبريل وعلى أي شيء أنت قال على الريح والجنود . قلت وعلى أي شي ميكائيل ؟ قال على النبات والقطر قلت ، وعلى أي شيء ملك الموت ؟ قال : على قبض الأنفس وما ظننت أنه نزل إلا لقيام الساعة وما الذي رأيت مني إلا خوفاً من قيام الساعة » ا . هـ . هذا حديث غريب من هذا الوجه .

وفي صحيح مسلم عن عائشة : أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول : « اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق باذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم .

وفي حديث الصور أن اسرافيل أول من يبعثه الله بعد الصعق لينفخ في الصور وذكر محمد بن الحسن النقاش أن اسرافيل أول من سجد من الملائكة فجوزي بولاية اللوح المحفوظ ، حكاه أبو القاسم السهيلي في كتابه التعريف والاعلام بما أبهم في القرآن من الأعلام ، وقال تعالى : ﴿ من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال ﴾ [1] عطفها على الملائكة لشرفهما فجبريل ملك عظيم قد تقدم ذكره

* * *

ميكائيل :

وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات وهو ذو مكانة من ربه عز وجل ومن أشرف الملائكة المقربين ، وقد قال الامام أحمد : حدثنا أبو اليمان حدثنا ابن عباس عن عمارة بن غزنة الأنصاري أنه سمع حميد بن عبيد مولى بني المعلى يقول : « سمعت ثابتاً البناني يحدث عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال لجبريل مالي لم أر ميكائيل ضاحكاً قط فقال ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار » ا . هـ .

* * *

---

(١) ٩٨ : سورة البقرة .

فهؤلاء الملائكة المصرح بذكرهم في القرآن وفي الصحاح هم المذكورون في الدعاء النبوي ﴿ اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل ﴾ (١) ، فجبريل ينزل بالهدى على الرسل لتبليغ الأمم . وميكائيل موكل بالقطر والنبات اللذين يخلق منها الارزاق في هذه الدار ، وله أعوان يفعلون ما يأمرهم به بأمر ربه . يصرفون الرياح والسحاب كما يشاء الرب جل جلاله . وقد روينا أنه ما من قطرة تنزل من السماء إلا ومعها ملك يقررها في موضعها من الأرض واسرافيل موكل بالنفخ في الصور للقيام من القبور . والحضور يوم البعث والنشور ليفوز الشكور ويجازى الكفور . فذاك ذنبه مغفور ، وسعيه مشكور ، وهذا قد صار عمله كالهباء المنشور . وهو يدعو بالويل والثبور « فجبريل عليه السلام يحصل بما ينزل به الهدى ، وميكائيل يحصل بما هو موكل به الرزق ، واسرافيل يحصل بما هو موكل به النصر والجزاء » .

* * *

ملك الموت

وأما ملك الموت فليس بمصرح باسمه في القرآن ولا في الأحاديث الصحاح ، وقد جاء تسميته في بعض الآثار بعزرائيل . . والله أعلم .

وقد قال تعالى : ﴿ قُلْ يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ (٢) . وله أعوان يستخرجون روح العبد من جثته حتى تبلغ الحلقوم فيتناولها ملك الموت بيده فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها منه (٣) فيلقوها في أكفان تليق بها كما قد بسط عند قوله ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ (٤) .

---

(١) أخرجه أصحاب السنة باسناد جيد .

(٢) ١١ : سورة السجدة .

(٣) حول طريقة نزع الروح انظر التذكرة للقرطبي . . والروح لابن القيم .

(٤) ٢٧ : سورة ابراهيم .

ثم يصعدون بها فان كانت صالحة فتحت لها أبواب السماء وإلا غلقت دونها وألقي بها إلى الأرض ، قال الله تعالى : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ، ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾ (١) .

وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد أنهم قالوا إن الأرض بين يدي ملك مثل الطست يتناول منها حيث يشاء ، وقد ذكرنا أن ملائكة الموت يأتون الانسان على حسب عمله إن كان مؤمناً أتاه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب طيبة الأرواح . وان كان كافراً فبالضد من ذلك . عياذاً بالله العظيم من ذلك .

وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا يحيى بن أبي يحيى المقري حدثنا عمرو بن شمر قال : سمعت جعفر بن محمد قال : سمعت أبي يقول : نظر رسول الله ﷺ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال له النبي ﷺ : « يا ملك الموت ارفق بصاحبي فإنه مؤمن » فقال ملك الموت يا محمد طب نفساً وقر عيناً فإني بكل مؤمن رفيق ، وأعلم أن ما في الأرض بيت مدر ولا شعر في بر ولا بحر إلا وأنا اتفحصهم في كل يوم خمس مرات حتى إني اعرف بصغيرهم وكبيرهم بأنفسهم والله يا محمد لو أني أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها ا . هـ .

قال جعفر بن محمد أبي هو الصادق بلغني بتفحصهم عند مواقيت الصلاة فإذا حضر عند الموت فإذا كان ممن يحافظ على الصلاة دنا منه الملك ودفع عنه الشيطان ولقنه الملك « لا إله إلا الله محمد رسول الله » في تلك الحالة العظيمة ا . هـ . هذا حديث مرسل وفيه نظر وذكرنا في حديث الصور من طريق اسماعيل بن رافع المدنى القاص عن محمد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ « الحديث بطوله » . وفيه ويأمر الله اسرافيل بنفخة الصعق فينفخ نفخة الصعق فيصعق أهل السماوات وأهل الأرض إلا من شاء الله فإذا هم قد خمدوا جاء ملك الموت إلى الجبار عز وجل

---

(١) ٦١ : سورة الأنعام .

فيقول : يا رب قد مات أهل السماوات والأرض إلا من شئت ، فيقول الله وهو أعلم بمن بقى . . فمن بقي ؟ فيقول بقيت أنت الحي الذي لا يموت وبقيت حملة عرشك وبقي جبريل وميكائيل فيقول ليحث جبريل وميكائيل فينطق الله العرش فيقول يموت جبريل وميكائيل فيقول اسكت فإني كتبت الموت على كل من كان تحت عرشي فيموتان « ثم يأتي ملك الموت إلى الجبار عز وجل فيقول يا رب قد مات جبريل وميكائيل فيقول الله ـ وهو أعلم بمن بقي فمن بقي ؟ فيقول : بقيت أنت الحي الذي لا يموت ، وبقيت حملة عرشك وبقيت أنا ، فيقول لتمت حملة عرشي . فتموت ، ويأمر الله العرش فيقبض الصور من إسرافيل ثم يأتي ملك الموت فيقول يا رب قد مات حملت عرشك فيقول الله وهو أعلم بمن بقي « فمن بقي » فيقول بقيت أنت الحي الذي لا يموت وبقيت أنا فيقول الله أنت خلق من خلقي خلقتك لما أردت فمت فيموت. فإذا لم يبق إلا الله الواحد القهار الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ـ كان آخراً كما كان أولاً ـ وذكر قام الحديث بطوله رواه الطبراني وابن جرير والبيهقي ، ورواه الحافظ أبو موسى المديني في كتاب « المطولات » وعنده زيادة غريبة وهي قوله فيقول الله أنت خلق من خلقي خلقتك لما أردت فمت موتاً لا تحيي بعده أبداً » ا . هـ .

* * *

هاروت وماروت :

ومن الملائكة المنصوص على اسمائهم في القرآن هاروت وماروت في قول جماعة كثيرة من السلف وقد ورد في قصتها وما كان من أمرهما آثار كثيرة غالبها اسرائيليات .

وروى الامام أحمد حديثاً مرفوعاً من ابن عمر وصححه ابن حبان في تقاسيمه ، وفي صحته عندي نظر ، والأشبه أنه موقوف على عبد الله بن عمر ويكون مما تلقاه عن كعب الأحبار كما سيأتي والله أعلم . وفيه أنه تمثلت لها الزهرة امرأة من أحسن البشر ، وعن علي وابن عباس وابن عمر أيضاً أن الزهرة كانت امرأة وأنها لما طلبا منها ما ذكر أبت إلا أن يعلماها الاسم الاعظم فعلماها

فقالته فارتفعت إلى السماء فصارت كوكباً ا . هـ . وروى الحاكم في مستدركه عن ابن عباس قال وفي ذلك الزمان امرأة حسنها في النساء كحسن الزهرة في سائر الكواكب وهذا اللفظ أحسن ما ورد في شأن الزهرة ، ثم قيل كان أمرهما وقصتها في زمان أدريس ، وقيل في زمان سليمان بن داود كما حررنا ذلك في التفسير .

وبالجملة فهو خبر اسرائيل . مراجعه إلى كعب الأحبار كما رواه عبد الرزاق ي تفسيره عن الثوري عن موسى به عقبة عن سالم عن ابن عمر عن كعب الأحبار بالقصة ، وهذا أصبح اسناداً وأثبت رجالاً . . والله أعلم

ثم قد قيل إن المراد بقوله : ﴿ وما نزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ﴾ [١] . قبيلان من الحان . . قاله ابن حزم وهذا غريب وبعيد من اللفظ . ومن الناس من قرأ وما أنزل على الملكين بالكسر ويجعلهما علجين [٢] . من أهل فارس . قاله الضحاك .

ومن الناس من يقول : هما ملكان من السماء ولكن سبق قدر الله لها ما ذكره من أمرهما إن صح يه الخبر ويكون حكمهما الحكم ابليس إن قيل إنه من الملائكة لكن الصحيح أنه من الجن كما سيأتي تقريره .

* * *

منكر ونكير :

ومن الملائكة المسمين في الحديث منكر ونكير عليهما السلام ، وقد استفاض في الأحاديث ذكرهما في سؤال القبر . وقد أوردنا عند قوله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله

---

(١) ١٠٢ : سورة البقرة .

(٢) العلج : حمار الوحش الغليظ ورجل علج شديد ، والعلج : الرجل الضخم من كفار العجم وبعض العرب يطلق العلج على الكافر والجمع علوج وأعلاج . . وعلجين مثنى لعلج .

الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾ (١) . وهما ملكا القبر موكلان بسؤال الميت في قبره عن ربه ودينه ونبيه ويمتحنان البر والفاجر وهما أزرقان أفرقان لهما انياب وأشكال مزعجة وأصوات مفزعة أجارنا الله من عذاب القبر وثبتنا بالقول الثابت . . آمين .

وقال البخاري : حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا ابن وهب حدثني يونس عن ابن شهاب حدثني عروة أن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت للنبي ﷺ « هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد . قال لقد لقيت من قومك وكان أشدها ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي مع ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا به عليك وقد بعث لك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال يا محمد فقال ذلك فما شئت إن شيئاً ان أطبق عليهم الأخشبين فقال النبي ﷺ « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً » ورواه مسلم من حديث ابن وهب به .

* * *

---

(١) ٢٧ : سورة ابراهيم .

اعلم وفقك الله أن منكر ونكير هما اللذان يسألان العبد بعد وضعه في قبره . . والايمان بهما واجب . . فكما ورد « عذاب القبر حق » . . راجع الحياة بعد الموت للمحقق - التذكرة للقرطبي - احياء علوم الدين للغزالي - الجزء الرابع . .

فصل

أقسام الملائكة

ثم الملائكة عليهم السلام بالنسبة إلى ما هيأ الله له أقسام :

ـ فمنهم حملة العرش كما تقدم ذكرهم ومنهم الكروبيون الذين هم حول العرش وهم أشرف الملائكة مع حملة العرش ، وهم الملائكة المقربون كما قال تعالى : ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ﴾ (١) .

ـ ومنهم جبريل وميكائيل عليهم السلام . وقد ذكر الله عنهم أنهم يستغفرون للمؤمنين بظهر الغيب كما قال تعالى : ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم . انك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته . وذلك هو النور العظيم ﴾ (٢) .

ولما كانت سجاياهم هذه السجية الطاهرة كانوا يحبون من اتصف بهذه الصفة فثبت في الحديث عن الصادق المصدوق أنه قال « إذا دعا العبد لأخيه بظهر الغيب قال الملك آمين ولك بمثل » (٣) .

---

(١) ١٧٢ : سورة النساء .

(٢) ٧ ـ ٩ : سورة غافر .

(٣) ذلك من طبيعتهم لأنهم أجسام نورانية وعباد عبّاد يتمنون الخير ويفرحون به .

ـ ومنهم سكان السماوات السبع يعمرونها عبادة دائبة ليلاً ونهاراً صباحاً ومساء كما قال : ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ [1] .

ـ فمنهم الراكع دائماً والقائم دائماً والساجد دائماً ، ومنهم الذين يتعاقبون زمرة بعد زمرة إلى البيت المعمور كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم .

ـ ومنهم الموكلون بالجنان واعداد الكرامة لأهلها وتهيئة الضيافة لساكنيها من ملابس ومصاغ ومساكن ومآكل ومشارب وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ـ وخازن الجنة ملك يقال له رضوان جاء مصرحاً به في بعض الأحاديث .

ـ ومنهم الموكلون بالنار وهم الزبانية ، ومقدموهم تسعة عشر وخازنها مالك وهو مقدم على جميع الخزنة . وهم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ﴾ [2] . وقال تعالى : ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك . قال إنكم ماكثون لقد جئناكم بالحق ولكن اكثركم للحق كارهون ﴾ [3] . . وقال تعالى : ﴿ عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ [4] . وقال تعالى : ﴿ عليها تسعة عشر وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً . كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ، وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ [5] .

ـ وهم الموكلون بحفظ بني آدم كما قال تعالى : ﴿ سواء منكم من أسر

---

(١) ٢٠ : الأنبياء .
(٢) ٤٩ : سورة فاطر .
(٣) ٧٧ : سورة الزخرف .
(٤) ٦ : سورة التحريم .
(٥) ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ : المدثر .

القول ومن جهر به ، ومن هو مستخفٍ بالليل وسارب بالنهار ، له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظون من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ومالهم من دونه من وال ﴾ (١) .

قال الوالبي عن ابن عباس له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله (٢) وهي الملائكة . . وقال عكرمة عن ابن عباس يحفظونه من أمر الله . قال ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه فإذا جاء قدر الله خلوا عنه . . وقال مجاهد : ما من عبد إلا وملك موكل بحفظه في نومه ويقظته من الجن والانس والهوام . وليس شيء يأتيه يريده الأقال وراءك الا شيء ويأذن الله فيه فيصيبه .

وقال أبو امامة : ما من آدمي إلا ومعه ملك يذود عنه حتى يسلمه للذي قدر له ، وقال أبو مجلز : جاء رجل الى علي فقال : إن نفراً من مراد يريدون قتلك فقال إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه ان الأجل جنة حصينة .

ومنهم الموكلون بحفظ أعمال العباد كما قال تعالى : ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ (٣) . وقال تعالى : ﴿ وان عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾ (٤) .

قال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن أبي جامة الرازي في تفسيره حدثنا أبي حدثنا علي بن محمد الطنافسي حدثنا وكيع حدثنا سفيان ومسعر عن علقمة بن يزيد عن مجاهد قال : قال رسول الله ﷺ « اكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين الجنابة والغائط فإذا اغتسل أحدكم فليستتر بجذم (٥) . حائط أو بعيره أو يسترة أخوه » ا . هـ . . . هذا مرسل من هذا

---

(١) ١٠ ، ١١ : الرعد .
(٢) ١١ : سورة الرعد .
(٣) ١٧ ، ١٨ : سورة ق .
(٤) ١٠ ـ ١٢ : سورة الانفطار .
(٥) أي وراء حائط .

الوجه وقد وصله البزار في مسنده من طريق جعفر بن سليمان . وفيه كلام . .

ـ عن علقمة بن مجاهد عن ابن عباس قال قال : رسول الله ﷺ : « إن الله ينهاكم عن التعري فاستحيوا من الله والذين معكم الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند ثلاث حالات : الغائط والجنابة والغسل . فاذا اغتسل أحدكم بالعراء فليستتر بثوبه أو بجذم حائط أو بعيره » ا . هـ . ومعنى إكرامهم أن يستحي منهم فلا يملي عليهم الأعمال القبيحة التي يكتبونها فان الله خلقهم كراماً في خلقهم وأخلاقهم . .

ومن كرمهم أنه قد ثبت في الحديث المروي في الصحاح والسنن والمسانيد من حديث جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة ولا كلب ولا جنب » ا . هـ . وفي رواية عن عاصم بن حمزة عن علي « ولا بول » وفي رواية رافع عن أبي سعيد مرفوعاً : « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب أو تمثال » ا . هـ . . وفي رواية مجاهد عن أبي هريرة مرفوعاً : « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب أو تمثال » ا . هـ . وفي رواية ذكر أن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تصحب الملائكة رفقة معهم كلب أو جرس » ا . هـ . ورواه زرارة بن أوفى عنه لا تصحب الملائكة رفقة معهم جرس .

وقال البزار : حدثنا اسحاق بن سليمان البغدادي المعروف بالطاوس . حدثنا بيان بن حمران حدثنا سلام بن منصور بن زاذان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن ملائكة الله يعرفون بني آدم » وأحسبه قال : « ويعرفون أعمالهم ، فإذا نظروا إلى عبد يعمل بمعصية الله ذكروه بينهم وسموه ، وقالوا هلك فلان الليلة » ا . هـ . ثم قال : سلام أحسبه سلام المدائني وهو لين الحديث (١) .

وقد قال البخاري : حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب حدثنا أبو الزناد وعن

(١) سلام المدائن : يقال أيضاً سلام بن سلم التميمي السعدي الخراساني ثم المدائني الطويل . قال أحمد بن أبي مريم : سألت ابن معين عنه فقال : ضعيف لا يكتب حديثة : وعن يحيى قال : سلام الطويل ليس بشيء . الضعفاء الصغير للبخاري(٥٠) وهاشم . ط دار الوعي

الأعـرج عن أبي هريـرة قال قـال رسول الله ﷺ : « المـلائكة يتعـاقبون مـلائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصـر . ثم يعرج إليـه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم فيقول كيف تركتم عبادي فيقـولون تـركناهم وهم يصلون . واتيناهم وهم يصلون . هذا اللفظ في كتاب « بدء الخلق » بهـذا السياق . . وهذا السياق وهذا اللفظ تفرد به دون مسلم من هذا الوجه . .

وقد أخرجـاه في الصحيحين في البـدء من حديث مـالك عن أبي الـزناد ، وقـال البزار : حـدثنا زيـاد بن أيوب حـدثنا مبشـر بن اسماعيـل الحلبي حدثنـا تمام بن نجيح عن الحسن يعني البصري عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ وما من حافظين يرفعان إلى الله عز وجل ما حفظا في يوم فيرى في أول الصحيفة وفي آخرها استغفاراً إلا قال الله غفـرت لعبدي مـا بين طـرفي الصحيفة ا . هـ . ثم قال : تفرد به تمام بن نجيح وهو صالح الحديث .

قلت : وقـد وثقه ابن معـين وضعفه البخـاري وأبو زرعـة والنسائي وابن عدي ورماه ابن حبان بالوضع وقال الامام أحمد : لا أعرف حقيقة أمره والمقصود أن كل انسان له حافظان ملكان اثنان واحد من بين يديه وآخر من خلفه يحفظانه من أمر الله بأمـر الله عز وجـل . وملكان كـاتبان عن يمينـه وعن شمالـه وكاتب اليمين أمير على كاتب الشمال . كما ذكرنا ذلك عند قوله تعـالى : ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ [(١)] .

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر حدثنـا سفيان حدثنا منصور عن سالم بن أبي الجعد عن أبيه عن عبد الله هو ابن مسعـود قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينـه من الملائكة قـالوا وإيـاك يا رسـول الله قال واياي ، ولكن الله اعانني عليـه فلا يأمرني إلا بخير » ا . هـ . انفرد باخراجه مسلم من حديث منصـور به فيحتمـل أن هـذا القرين من المـلائكة غـير القرين بحفظ الانسـان ، وانما هـو موكـل بـه ليهديه ويرشده باذن ربه إلى سبيل الخير وطريق الرشاد كما أنه قد وكل به القرين

---

(١) ١٨ ، ١٩ : ق .

من الشياطين لا يألون جهداً في الخيال والاضلال . والمعصوم من عصمه الله عز وجل . وبالله المستعان .

وقال البخاري : حدثنا أحمد بن يونس حدثنا ابراهيم بن سعد حدثنا ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن والاعز عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول فالأول فإذا جلس الامام طووا الصحف وجاؤا يسمعون الذكر » ا . هـ . وهكذا رواه منفرداً به من هذا الوجه وهو في الصحيحين من وجه آخر . وقد قال تعالى : ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ (١) .

وقال الامام أحمد حدثنا أسباط حدثنا الأعمش عن ابراهيم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ . وحدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله : « وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً » قال : تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار ا . هـ . ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه عن حديث أسباط ، وقال الترمذي : حسن صحيح . قلت وهو منقطع .

وقال البخاري حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهري عن أبي سلمة وسعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « فضل صلاة الجمع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة . ويجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر » يقول أبو هريرة اقروا إن شئتم وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً .

وقال البخاري : حدثنا مسدد حدثنا أبو عوانة عن الأعمش عن أبي حازم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فبات غضبان لعنتها الملائكة حتى تصبح » ا . هـ . تابعه شعبة وأبو حمزة وأبو داود وأبو معاوية عن الأعمش .

وثبت في الصحيحن أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أمن الامام فأمنوا فإن

(١) ٧٨ : سورة الإسراء .

من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » ا . هـ .

وفي صحيح البخاري : حدثنا اسماعيل بلفظ إذا قال الامام آمين فإن الملائكة تقول في السماء آمين فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه .

وفي صحيح البخاري حدثنا اسماعيل حدثني مالك عن سمي عن أبي صالح عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « إذا قال الامام سمع الله لمن حمده فقولوا « اللهم ربنا ولك الحمد » فإن من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » .

ورواه بقية الجماعة إلا ابن ماجه من حديث مالك ، وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة أو عن ابي سعيد هو شك يعني الأعمش (١) . قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله ملائكة سياحين في الأرض فضلاً عن كتاب الناس ، فإذا وجدوا اقواماً يذكرون الله فنادوا هلموا الى بغيتكم فيجيئون بهم إلى السماء الدنيا فيقول الله أي شيء تركته عبادي يصنعون فيقولون تركناهم يحمدونك ويمجدونك ويذكرونك فيقول وهل رأوني فيقولون لا فيقول كيف لو رأوني فيقولون لو رأوك لكانوا أشد تحميداً وتمجيداً وذكراً . قال فيقول فأي شيء يطلبون فيقولون يطلبون الجنة فيقول وهل رأوها فيقولون لا فيقول وكيف لو رأوها فيقولون لو راوها لكانوا أشد عليها حرصاً وأشد لها طلباً قال فيقول من أي شيء يتعوذون فيقولون: من النار فيقول: وهل رأوها . فيقولون : لو رأوها كانوا أشد منها هرباً وأشد منها خوفاً . قال : فيقول أشهدكم أني قد غفرت لهم . قال : فيقول إن فيهم فلاناً الخطاء لم يردهم إنما جاء لحاجة فيقول : هم القوم لا يشقى جليسهم » ا . هـ .

وهكذا رواه البخاري عن قتيبة عن جرير بن عبد الحميد عن الأعمش

---

(١) الأعمش : ولم أقف عليه في الضعاف . . ولم يتكلم عنه كثيرون وحسنه بعضهم . والله أعلم بحاله . قال النسائي « الطبعة الأولى من أصحاب الأعمش يحيى بن سعيد القطان ، وسفيان الثوري وشعبة بن الحجاج » ا . هـ . الضعفاء الصغير (١٣٢) ط دار الوعي بحلب .

به ، وقال رواه شعبة عن الأعمش ولم يرفعه . ورفعه سهيل عن أبيه . وقد رواه أحمد عن عفان عن وهيب عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه كما ذكره البخاري معلقاً عن سهيل . ورواه مسلم عن محمد بن حاتم عن بهز بن أسد عن وهب به . وقد رواه الامام أحمد أيضاً عن غندر عن شعبة عن سليمان « هو الأعمش » عن أبي صالح عن أبي هريرة كما اشار إليه البخاري رحمه الله .

وقال الامام أحمد : حدثنا أبو معاوية . حدثنا الأعمش وأبن نمير . أخبرنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة . ومن سلك طريقاً يلتمس به علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسون بينهم الا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده . ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه » ا . هـ . وكذا رواه مسلم من حديث أبي معاوية ، وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن أبي اسحاق عن الأغر وأبي مسلم (١) . عن أبي هريرة وأبي سعيد عن رسول الله ﷺ قال : « ما اجتمع قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده » ا . هـ . وكذا رواه أيضاً من حديث اسرائيل وسفيان الثوري وشعبة عن ابن اسحاق به نحوه . ورواه مسلم من حديث شعبة والترمذي من حديث الثوري وقال حسن صحيح . ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يحيى بن آدم عن عمار بن زريق عن أبي اسحاق باسناد نحوه . وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة .

وفي مسند الامام أحمد والسند عن أبي الدرداء مرفوعاً « وان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع » أي تتواضع كما قال تعالى : ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ (٢) . وقال تعالى : ﴿ واخفض

(١) الأغر لعله لقبه أو عرف به .
(٢) ٣٤ : سورة الاسراء .

جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ (١) .

وقال الامام احمد حدثنا وكيع عن سفيان عن عبد الله بن السائب عن زاذان عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « إن لله ملائكة سياحين في الأرض ليبلغوني عن أمتي السلام » ا . هـ . وهكذا رواه النسائي من حديث سفيان الثوري وسليمان الأعمش كلاهما عن عبد الله بن السائب ، وقال الامام أحمد . حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم » ا . هـ . وهكذا رواه مسلم عن محمد بن رافع وعبده بن حميد وكلاهما عن عبد الرزاق ، والأحاديث في ذكر الملائكة كثيرة جداً . . وقد ذكرنا ما يسره الله تعالى وله الحمد .

* * *

﴿ فصل ﴾

وقد اختلف الناس في تفضيل الملائكة على البشر على أقوال . . فأكثر ما توجد هذه المسألة في كتب المتكلمين والخلاف فيها مع المعتزلة ومن وافقهم (٢) ، وأقدم كلام رأيته في هذه المسألة ما ذكره الحافظ بن عساكر في تاريخه من ترجمة أمية بن عمرو بن سعد بن العاص أنه حضر مجلساً لعمر بن عبد العزيز وعنده جماعة فقال عمر ماأحد أكرم على الله من كريم بني آدم . واستدل بقوله تعالى : ﴿ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك خير البرية ﴾ (٣) . ووافقه على ذلك أمية بن عمرو بن سعيد فقال عراك بن مالك ما أحد اكرم على الله من ملائكته هم حزمة دارية ورسله إلى انبيائه .

---

(١) ٢١٥ : سورة الشعراء .

(٢) أعلم وفقك الله أن الانسان لما له من شهوة وزينة تحسن إليه الفجور والخروج حيث نهى الله . . بخلاف الملائكة فليس عندهم ما يحسن اليهم ذلك . . فإن العبد الصالح بقدراته على جمع شهوته والتزام نهج ربه يعلو بذلك فوق الملائكة . . فهو حين صلاحه ملك وأفضل من ملك . . والله تعالى أعلم .

(٣) ٧ : سورة البنية .

واستدل بقول الله تعالى : ﴿ ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ [1] . فقال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب القرظي ما تقول أنت يا أبا حمزة ، فقال قد أكرم الله آدم فخلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة وجعل من ذريته الانبياء والرسل ومن يزوره الملائكة . . فوافق عمر بن عبد العزيز في الحكم واستدل بغير دليله . وأضعف دلالة ما صرح به من الآية وهو قوله : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ مضمونة انها ليست خاصة بالبشر ، فان الله قد وصف الملائكة بالايمان في قوله : ﴿ ويؤمنون به ﴾ وكذلك الجان ﴿ وانا لما سمعنا الهدى آمنا به ﴾ [2] . « وأنا منا المسلمون » [3] .

قلت : وأحسن ما يستدل به في هذه المسألة ما رواه عثمان بن سعيد الدارمي عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً وهو أصح ، قال : لما خلق الله الجنة قالت الملائكة يا ربنا اجعل لنا هذه نأكل منها ونشرب فإنك خلقت الدنيا لبني آدم فقال الله : ﴿ لن أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان ﴾ .

* * *

(1) ٢٠ : سورة الأعراف .
(2) ١٣ : سورة الجن .
(3) ١٤ : سورة الجن .

خلق آدم عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ خلق الانسان مَن صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم ﴾ (٢) .

وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وغير واحد « من مارج من نار » قالوا من طرف اللهب وفي رواية من خالصه وأحسنه ، وقد ذكرنا آنفاً من طريق الزهري عن عروة عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من نار وخلق آدم مما وصف لكم » ا . هـ . رواه مسلم .

قال كثير من علماء التفسير (خلقت الجن قبل آدم عليه السلام وكان قبلهم في الأرض الجن وابليس فسلط الله الجن عليهم فقتلوهم وأجلوهم عنها وأبادوهم منها وسكنوها بعدهم) أ . هـ .

وذكر السدي في تفسيره عن أبي مالك عن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ لما فرغ الله من خلق

---

(١) ١٤ : ١٦ : سورة الرحمن .

(٢) ٢٦ ، ٢٧ : الحجر .

ما أحب استوى على العرش فجعل إبليس على ملك الدنيا وكان من قبيلة الملائكة يقال لهم الجن وانما سموا الجن لأنهم خزان الجنة . . وكان ابليس مع ملكه خازنا فوقع في صدره إنما أعطاني الله هذا لمزية لي على الملائكة .

وذكر الضحاك عن ابن عباس أن الجن لما أفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء بعث الله اليهم إبليس ومعه جند من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم عن الأرض إلى جزائر البحور .

وقال محمد بن اسحاق عن خلاد عن عطاء عن طاوس عن ابن عباس . كان اسم إبليس قبل أن يرتكب المعصية عزازيل . وكان من سكان الأرض ومن أشد الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً وكان من حي يقال له الجن .

وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير كان اسمه عزازيل وكان من أشرف الملائكة من أولى الأجنحة الأربعة . وقد اسند عن حجاج عن ابن جريج قال ابن عباس كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة . وكان خازناً على الجنان وكان له سلطان سماء الدنيا . وكان له سلطان الأرض . وقال صالح مولى التوأمة عن ابن عباس كان يسوس ما بين السماء والأرض ا . هـ . رواه ابن جرير . . وقال قتادة عن سعيد بن المسيب: كان ابليس رئيس الملائكة في سماء الدنيا . وقال الحسن البصري : لم يكن من الملائكة طرفة عين وانه لأصل الجن كما أن آدم أصل البشر . وقال شهر بن حوشب وغيره (كان ابليس من الجن الذين طردهم الملائكة فأسره بعضهم وذهب به الى السماء) ا . هـ . ابن جرير . قالوا فلما أراد الله خلق آدم ليكون في الأرض هو وذريته من بعده وصور جثته منها جعل ابليس وهو رئيس الجان وأكثرهم عبادة إذ ذاك وكان اسمه عزازيل يطيف به فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك . وقال أما لئن سلطت عليك لاهلكنك ولئن سلطت عليَّ لأعصينك فلما أن نفخ الله في آدم من روحه كما سيأتي . . وأمر الملائكة بالسجود له دخل ابليس منه حسد عظيم وامتنع من السجود له وقال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين فخالف الأمر واعترض على الرب عز وجل وأخطأ في قوله وابتعد من رحمة ربه وأنزل من مرتبته التي كان قد نالها بعبادته وكان قد تشبه بالملائكة ولم يكن من جنسهم لأنه

مخلوق من نار وهم من نور فخانه طبعه في أحوج ما كان إليه ورجع إلى أصله الناري « فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا ابليس استكبر وكان من الكافرين »[1] وقال تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً ﴾[2] .

فأهبط ابليس من الملأ الأعلى وحرم عليه قدر أن يسكنه فنزل إلى الأرض حقيراً ذليلاً مذؤماً[3] . مدحوراً متوعداً بالنار هو ومن اتبعه من الجن والإنس إلا انه مع ذلك جاهد كل الجهد على اضلال بني آدم بكل طريق وبكل مرصد كما قال « أرأيتك هذا الذي كرمت عليَّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لاحتنكن ذريته إلا قليلاً . قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً واستغرر من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً . إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً »[4] .

وسنذكر القصة مستفاضة عند ذكر خلق آدم عليه السلام . والمقصود أن الجان خلقوا من النار وهم كبني آدم يأكلون ويشربون ويتناسلون[5] ، ومنهم المؤمنون ومنهم الكافرون كما أخبر تعالى عنهم في سورة الجن في قوله تعالى : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق والى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا دَاعِيَ الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم . ومن لا

(١) ٧٣ : ص .

(٢) ٥٠ : سورة الكهف .

(٣) أي قليلاً ضئيلاً .

(٤) ٦٢ - ٦٥ : سورة الإسراء .

(٥) راجع غرائب وعجائب الجن - للمحقق .

والمعلوم أن عالم الجن يختلف عن عالم الشياطين . . فعالم الجن يتناكح ويأكل ويشرب كما ثبت أما عالم الشياطين فإنه انذار الله لإبليس يقتضي أن يعيش وأهله من الشياطين مهما كانت الظروف الملابسة . . وقد تطلق كلمة شيطان على الجن . . راجع مملكة ابليس للمحقق .

يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين ﴾ [1] . .

وقال تعالى : ﴿ قل أوحى إليَّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً . وأنه تعالى هو ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا . وانه كان يقول سفيهنا على الله شططا . وأنا ظننا أنا لن تقول الانس والجن على الله كذباً . وأنه كان رجال من الأنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً . وأنهم ظنوا كما ظننتم أنه لن يبعث الله أحداً . وأنا لمسنا السماء فوجدناها مُلئَتْ حرساً شديداً وشهباً . وأنا كنا نقعد فيها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً . وانا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قدداً . وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا ، وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً . وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون . فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ، وان لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقاً لنفتنهم فيه . ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً ﴾ [2] .

وقد ذكرنا تفسير هذه السورة وتمام القصة في آخر سورة الأحقاف . وذكرنا الأحاديث المتعلقة بذلك هنالك . وأن هؤلاء النفر كانوا من جن (نصيبين) وفي بعض الآثار من جن (بصري) وأنهم مروا برسول الله ﷺ وهو قائم يصلي بأصحابه ببطن نخلة من أرض قلة فوقفوا فاستمعوالقراءته . ثم اجتمع بهم النبي ﷺ ليلة كاملة فسألوه عن أشياء أمرهم بها ونهاهم عنها وسألوه الزاد فقال لهم : « كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما يكون لحماً وكل روثة علف لدوابكم » ا . هـ .

ونهى رسول الله ﷺ أنه يستنجي بها وقال : « انهما زاد اخوانكم من

---

(١) ٢٩ : ٣٢ : سورة الأحقاف .

(٢) من ١ ـ ١٧ : سورة الجن .

الجن » [1] . ونهى عن البول في السرب لأنها مساكن الجن [2] ، وقرأ عليهم رسول الله ﷺ سورة الرحمن فاجعل يمر فيها بآية ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ إلا قالوا ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد . وقد افتى عليهم النبي ﷺ في ذلك لما قرأ هذه السورة على الناس فسكتوا . فقال : « الجن كانوا أحسن منكم رداً ما قرأت عليهم ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ إلا قالوا ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد » . رواه الترمذي عن جبير وابن جبير والبزار عن ابن عمر .

وقد اختلف في مؤمني الجن هل يدخلون الجنة أو يكون جزاء طائعهم أنه لا يعذب بالنار فقط . على قولين الصحيح أنهم يدخلون الجنة لعموم القرآن ، ولعموم قوله تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ [3] . فامتحن تعالى عليهم بذلك فلولا أنهم ينالونه لما ذكره وعده عليهم من النعم ، وهذا وحده دليل مستقل كاف في هذه المسألة وحده . . والله أعلم .

وقال البخاري : حدثنا قتيبة عن مالك عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة عن أبيه أن أبا سعيد الخدري قال له « إني أراك تحب الغنم والبادية فإذا كنت في غنمك وباديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا أنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة » ا . هـ . قال أبو سعيد سمعته من رسول الله ﷺ . انفرد به البخاري ومسلم .

وأما كافرو الجن فمنهم الشياطين ومقدمهم الأكبر ابليس عدو آدم أبي البشر وقد سلطه هو وذريته على آدم وذريته . وتكفل الله عز وجل بعصمة من آمن به وصدق رسله واتبع شرعه منهم . كما قال ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم

---

(١) راجع غرائب وعجائب الجن ـ للمحقق .
(٢) راجع غرائب وعجائب الجن ـ للمحقق .
(٣) ٤٧ ، ٤٨ : سورة الرحمن .

سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هـو منها في شـك وربك عـلى كل شيء حفيظ ﴾ وقـال تعالى : ﴿ يـا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كـما أخرج أبـويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهمـا ليريهمـا سؤاتهما إنـه يراكم هـو وقبيلة من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ (١) .

وقـال : ﴿ واذ قال ربـك للملائكـة إني خالق بشـراً من صلصـال من حمـأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين قال يا أبليس مالك أن لا تكون من الساجدين قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين . قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون ، قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم . قـال رب بما أغويتني لأزين لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك المخلصين قال هـذا صـراط عليَّ مستقيم . إن عبـادي ليس لـك عليهم سلطان إلا من اتبعـك من الغاوين . وان جهنم لموعـدهم أجمعين . لهـا سبعة أبـواب لكل بـاب منهم جزء مقسوم﴾ (٢). وقد ذكر تعالى هذه القصة في سورة البقرة وفي الأعراف وها هنا ، وفي سورة سبحانه ، وفي سورة طه وفي سورة ص . وقد تكلمنا على ذلك كله في مواضعه في كتابنا « التفسير » ولله الحمد . وسنوردها في قصـة آدم إن شاء الله . والمقصود أن ابليس أنظره الله الى يوم القيامة محنة لعباده واختباراً منه لهم كما قال تعـالى : ﴿ وما كـان له عليهم من سلطان إلا لنكلم من يؤمن بـالآخرة ممن هـو منها في شك . وربك على كل شيء حفيظ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ وقـال الشيطان لمـا قضى الأمر إن الله وعـدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجْبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم مـا أنا بمصـرحكم وما أنتم بمصـرحي إني كفرت بمـا أشركتمون من قبـل إن الظالمـين لهم عذاب أليم . وادخـل الذين آمنـوا وعملوا

---

(١) ٢٧ : الأعراف .

(٢) من ٢٦ : ٤٤ : سورة الحجر .

(٣) ٢١ : سورة سبأ .

الصالحات جنات تجري منها تحتها الأنهار خالدين فيها باذن ربهم تحيتهم فيها سلام ﴾ (١) .

فابليس لعنه الله حي الآن منظر إلى يوم القيامة بنص القرآن ، وله عرش على وجه البحر وهو جالس عليه ويبعث سراياه يلقون بين الناس الشر والفتن . وقد قال الله تعالى : ﴿ إن كيد الشيطان كان ضعيفاً وكان اسمه قبل معصيته العظيمة عزازيل﴾ قال النقاش وكنيته « أبو كردوس » ولهذا لما قال النبي ﷺ لابن صياد ما ترى قال أرى عرشاً على الماء . فقال له النبي ﷺ « أخسأ فلن تعدو قدرك » فعرف أن مادة مكاشفته التي كاشفه بها شيطانية مستمدة من ابليس الذي هو يشاهد عرشه على البحر ولهذا قال له اخسأ فلن تعدو تدرك أي لن تجاوز قيمتك الدنية الخسيسة الحقيرة .

والدليل على أن عرش ابليس على البحر الذي رواه الامام أحمد حدثنا أبو المغيرة حدثنا صنوان حدثني معاذ التميمي عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « عرش إبليس في البحر يبعث سراياه في كل يوم يفتنون الناس فأعظمهم عنده منزلة أعظمهم فتنة للناس » ا . هـ .

وقال أحمد : حدثنا مؤمل حدثنا حماد حدثنا علي بن زيد عن أبي نضرة عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ لابن صائد « ما ترى قال : أرى عرشاً على الماء أو قال على البحر حوله حيات » قال ﷺ ذاك عرش ابليس ا . هـ . هكذا رواه في مسند جابر .

وقال في مسند أبي سعيد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة انبأنا علي بن زيد عن أبي نضرة عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال لابن صائد « ما ترى قال أرى عرشاً على البحر حوله حيات » فقال رسول الله ﷺ : صدق ذاك عرش إبليس ا . هـ .

وروى الامام أحمد من طريق معاذ التميمي وأبي الزبيد عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون ولكن في

---

(١) ٢٢ : سورة ابراهيم .

التحـريش [1] بينهم . وروى الامام مسلم من حـديث الأعمش عن أبي سفيان طلحة بن نافع عن جابر عن النبي ﷺ قال « إن الشيطان يضع عـرشه عـلى الماء ثم يبعث سـراياه في النـاس فأقـربهم عنده منـزلة أعـظمهم عنـده فتنـة . يجيء أحدهم فيقول ما زلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا . فيقـول ابليس لا والله مـا صنعت شيئاً . ويجيء أحـدهم فيقول مـا تركتـه حتى فرقت بينـه وبـين أهله ، قال فيقربه ويدنيه ويقول نعم أنت » ا . هـ . يـروى بفتح النـون بمعنى نعم أنت ذاك الذي تستحق الاكرام . وبكسرها أي نعم منك . وقد استـدل به بعض النحـاة على جـواز كون فـاعل نعم مضمـراً وهو قليـل . واختـار شيخنـا الحافظ أبو الحجاج الأول ورجحه ووجهه بما ذكرناه . . والله أعلم .

وقـد أوردنا هـذا الحديث عنـد قولـه تعالى : ﴿ مـا يفرقـون به بـين المرء وزوجــه ﴾ [2] يعني أن السحــر المتلقى عن الشيـاطين مـن الأنس والجـن يتوصل به الى التفرقة بين المتآلفين غـاية التـآلف المتوادين المتحـابين ولهـذا يشكر ابليس سعي من كان السبب في ذلك . فالذي ذمه الله يمدحه والذي يغضب الله يرضيه عليه لعنة الله . وقد أنزل الله عـز وجل سـورتي المعوذتـين مطردة لأنـواع الشر وأسبابه وغاياته . ولا سيما سورة ﴿ قل أعوذ برب الناس ملك الناس . إله الناس . من شر الوسواس الخنـاس الذي يـوسوس في صـدور الناس من الجنـة والناس ﴾ . وثبت في الصحيحين عن أنس . وفي صحيـح البخاري عن صفيـة ابنة حسـين أن رسول الله ﷺ قـال : « إن الشيـطان يجـري من ابن آدم مجـرى الدم » ا . هـ .

* * *

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي حـدثنا محمـد بن جبير حـدثنا عدي بن أبي عمارة حدثنا زيادة النميري عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الشيطان

---

(١) أي الايقاع والوسوسة .

(٢) ١٠٢ : سورة البقرة .

ـ أعلم وفقك الله أن هذه الآية دليل على ثبوت تأثيره في التفـرقة بـين البشر . . وهـو قادر عـلى التفريق بين المرء وزوجه . . والواجب على المؤمن أن يثبت ايمانه ويقوي عزيمته ويحاول جهده أن يهزم شيطانه وأن يكون مع الله دائماً . . وقتها لا تهزه هزة . . ولا تهلكه مصيبة ولن يصيبه إلا ما كتب الله له . .

واضع خطمه على قلب ابن آدم فإن ذكر الله خنس ، وإن نسي التقم قلبه فذلك الوسواس الخناس . ولما كان ذكر الله مطردة للشيطان عن القلب كان فيه تـذكار للنـاس كما قـال تعـالى : ﴿ واذكـر ربـك إذا نسيت ﴾ [1] . . وقـال صـاحب موسى : ﴿ وما أنسـانيه إلا الشيـطان إن أذكره ﴾ [2] ، وقـال تعالى : ﴿ فـأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾ [3] يعني الساقي لما قال له يوسف اذكـرني عند ربـك نسي الساقي أن يذكره لربه يعني مولاه الملك . وكـان هذاالنسيـان من الشيطان فلبث يوسف في السجن بضع سنين ، ولهذا قال بعده ﴿ وقال الذي نجا منها واذكر بعد أمة ﴾ [4] أي مدة . وقرى بعد أمة أي نسيان . وهذا الذي قلنا من أن الناسي هو الساقي هو الصواب من القولين كما قررنا في التفسير . . والله أعلم .

وقال الامام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عاصم سمعت أبـا تميمة يحدث عن رديف رسول الله ﷺ قـال عثر بـالنبي ﷺ : حمـاره فقلت نفس الشيـطان فقال النبي ﷺ : « لا تقـل نفس الشيطان فـإنك إذا قلت نفس الشيطان تعاظم وقال بقوتي صـرعته وإذا قلت بسم الله تصـاغر حتى يصـير مثل الذباب » ا . هـ . تفرد به أحمد وهو اسناد جيد .

وقال احمد : حدثنا أبو بكر الحنفي حدثنا الضحـاك بن عثمان عن سعيـد المقبري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن أحدكم إذا كان في المسجد جاء الشيطان فأبس به كما يبس الرجل بدابته فإذا سكن لـه زنقه أو ألجمـه » قال أبو هريرة « وأنتم ترون ذلك . أما المزنوق فتراه مائلاً كذا لا يذكر إلا الله . وأما الملجم ففاتح فاه لا يذكر الله عز وجل » ا . هـ . تفرد به أحمد .

وقال الامام أحمد : حدثنا ابن نمير حدثنا ثور يعني ابن يزيـد عن مكحول عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « العين حق ويحضـرها الشيـطان وحسد ابن آدم » .

---

(١) ٢٤ : سورة الكهف .
(٢) ٩٣ : سورة الكهف .
(٣) ٤٢ : سورة يوسف .
(٤) ٤٥ : سورة يوسف

وقال الامام أحمد : حدثنا وكيع عن سفيان عن منصور عن ذر بن عبد الله الهمداني عن عبد الله بن شداد عن ابن عباس قال : « جاء رجل الى النبي ﷺ فقال يا رسول الله إني أحدث نفسي بالشيء لأن أخر من السماء أحب إلى من أن أتكلم به » ا . هـ . فقال النبي ﷺ « الله أكبر الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة » ا . هـ . ورواه أبو داود والنسائي من حديث منصور ، زاد النسائي والأعمش كلاهما عن أبي ذر به .

. وقال البخاري حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب قال أخبرني عروة قال : قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ « يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول من خلق ربك ، فإذا بلغه فليسعذ بالله ولينته » ا . هـ . وهكذا رواه مسلم من حديث الليث ومن حديث الزهرى وهشام بن عروة كلاهما عن عروة به ، وقد قال الله تعالى : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ وإما ينزعنك من الشيطان نزع فاستعذ بالله إنه سميع عليم ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾ (٤) .

وروى الامام أحمد وأهل السنن من حديث أبي المتوكل عن أبي سعيد قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه » ا . هـ . وجاء مثله من رواية جبير بن مطعم وعبد الله بن مسعود وأبي أسامة الباهلي . وتفسيره في الحديث « فهمزة الموتة وهو

---

(١) ٢٠١ : سورة الأعراف .
(٢) ٩٧ : المؤمنون .
(٣) ٢٠٠ : الأعراف .
(٤) ٩٩ : سورة النحل .

الخنق الذي هو الصرع[1] ونفخة الكبر ، ونفخة الشعر » ا . هـ .

وثبت في الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﷺ كان إذا دخل الخلاء قال : « أعوذ بالله من الخبث والخبائث » ا . هـ . قال كثير من العلماء : استعاذ من ذكر ان الشياطين واناثهم .

وروى الامام أحمد عن شريح عن عيسى بن يونس عن ثور عن الحسين عن ابن سعد الخير وكان من أصحاب عمر عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ومن أتى الغائط فليستتر بإن لم يجد إلا أن يجمع كثيباً فليستدبره فإن الشيطان يلعب بمقاعد بني آدم من فعل فقد أحسن ومن لا فلا حرج » ا . هـ . ورواه أبو داود وابن ماجة من حديث ثور بن يزيد به . وقال البخاري حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن الأعمش عن عدي بن ثابت قال : قال سليمان بن صرد استب رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس فأحدهما يسب صاحبه مغضباً فقد أحمر وجهه فقال النبي ﷺ « إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد . لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » فقالوا للرجل ألا تسمع ما يقول النبي ﷺ فقال : إني لست بمجنون » ا . هـ . ورواه أيضاً مسلم وأبو داود والنسائي من طرق عن الأعمش .

وقال الامام أحمد : حدثنا محمد بن عبيد حدثنا عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « لا يأكل أحدكم بشماله ولا يشرب بشماله فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله » ا . هـ . وهذا على شرط الصحيحين بهذا الاسناد وهو في الصحيح من غير هذا الوجه .

---

(١) الصرع قسمان : صرع من الأمراض النفسية يختص بعلاجه الأطباء . . وصرع من الشيطان . . أما صرع الشيطان . . فهو يتمثل في دخول الشيطان جسد ابن آدم . . فيصاب بحالة هستيرية في أوقات معينة . . فينام على ظهره ويزبد ويتكلم الشيطان بكلام دون أن يتحرك لسانه .

والصرع نتيجة فرار القرين الذي جعله إبليس معلماً للساحر من صاحبه وذهابه بعيداً عن الأعين . . فإن وجد طفلاً ودخل فيه أوقف نموه . . وان دخل في جسد بالغ سبب له حالة نفسية سيئة . .

ولمعرفة ذلك بالتفصيل راجع كتاب « السحر . . دراسة في ظلال القصص القرآني والسيرة النبوية » للمحقق .

وروى الامام أحمد من حديث اسماعيل بن أبي حكيم عن عروة عن عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال « من أكل بشماله أكل معه الشيطان ومن شرب بشماله شرب معه الشيطان » ا . هـ .

وقال الامام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر أنبأنا شعبة عن أبي زياد الطحان سمعت أبا هريرة يقول عن النبي ﷺ أنه رأى رجلاً قائماً فقال له « قه » قال لم ؟ . قال : « أيسرك أن يشرب معك الهر ؟ قال لا قال « فإنه قد شرب معك من هو شر منه الشيطان » تفرد به أحمد من هذا الوجه .

وقال أيضاً : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن رجل عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لو يعلم الذي يشرب وهو قائم ما في بطنه لاستقاء » ا . هـ . قال وحدثنا عبد الرزاق عن معمر عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قبل حديث الزهري . وقال الأمام أحمد حدثنا موسى حدثنا ابن لهيعة عن ابن الزبير أنه سأل جابراً سمعت النبي ﷺ قال : « إذا دخل الرجل بيته فذكر اسم الله حين يدخل وحين يطعم قال الشيطان لا بيت لكم ولا عشاء ها هنا . وان دخل ولم يذكر اسم الله عند دخوله قال : ادركته المبيت ، وان لم يذكر اسم الله عند طعامه قال ادركته المبيت والعشاء . قال نعم . وقال البخاري حدثنا محمد حدثنا عبدة حدثنا محمد عن هشام عن عروة عن أبيه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « إذا طلع حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى يبرز واذا غاب حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى يغيب ولا تحينوا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها فإنها تطلع بين قرني الشيطان » ا . هـ .

وقال الامام أحمد حدثنا أبو أحمد حدثنا بشير بن معبد حدثنا أبو عبيد حاجب سليمان قال : رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائماً يصلي فذهبت أمر بين يديه فردني ، ثم قال حدثني أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قام يصلي صلاة الصبح وهو خلفه يقرأ فالتبست عليه القراءة فلما فرغ من صلاته قال « لو رأيتموني وابليس فأهويت بيدي فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعي هاتين الابهام والتي تليها ولولا دعوة أخي سليمان لاصبح مربوطاً بسارية من

سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة فمن استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل » ا . هـ .

ولفظ البخاري عند تفسير قوله تعالى اخباراً عن سليمان عليه السلام أنه قال : « رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي انك أنت الوهاب » [1] من حديث روح وغندر عن شعبة عن محمد بن زياد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن عفريتاً من الجن نقلت على البارحة » أو كلمة نحوها ليقطع على الصلاة فأمكنني الله منه فاردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخي سليمان « رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب » [2] قال روح قردة خاسئاً .

وفي سنن أبي داود : أن رسول الله ﷺ كان يقول في دعائه « وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت » وروينا في بعض الأخبار انه قال « يا رب وعزتك وجلالك لا أزال أعونهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم ، فقال الله تعالى : ﴿ وعزتي وجلالي ولا ازال اغفر لهم مااستغفروني ﴾ . . ا . هـ .

وقال الله تعالى : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم ﴾ [3] فوعد الله هو الحق المصدق ، ووعد الشيطان هو الباطل . وقد روى الترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه وابن أبي حاتم في تفسيره من حديث عطاء بن السائب عن مرة الهمداني عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « إن للشيطان للمة بابن آدم وللملك لمة . فأما لمة الشيطان فأيعاد بالشر وتكذيب بالحق . وأما لمة الملك فايعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله . ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان ثم قرأ ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله

---

(١) ٣٥ : سورة ص .
(٢) ٣٥ : سورة ص .
(٣) ٢٦٨ : سورة البقرة .

يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم ﴾ [1] .

وقد ذكرنا في فضل سورة البقرة أن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه . . وذكرنا من فضل آية الكرسي أن من قرأها في ليلة لا يقربه الشيطان حتى يصبح . .

وقال البخاري حدثنا عبد الله بن يوسف أنبأنا مالك عن سمي عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له . له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل ما جاء ، الا رجل عمل أكثر من ذلك » ا . هـ . وأخرجه مسلم والترمذي وابن ماجة من حديث مالك . وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا سفيان عن محمد بن عجلان عن سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله يحب العطاس ويبغض أو يكره التثاؤب فاذا قال أحدكم ها ها فإنما ذلك الشيطان يضحك من جوفه » ا . هـ . ورواه الترمذي والنسائي من حديث محمد بن عجلان .

وقال البخاري : حدثنا الحسن بن الربيع حدثنا أبو الأحوص عن أشعث عن أبيه عن مسروق قال : قالت عائشة : سألت النبي ﷺ عن التفات الرجل في الصلاة فقال هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة أحدكم » ا . هـ . كذا رواه أبو داود والنسائي من رواية أشعث بن أبي الشعثاء سليم بن أسود المحاربي عن أبيه عن مسروق به .

وروى البخاري من حديث الاوزاعي عن يحيى بن أبي كثير حدثني عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ « الرؤيا الصالحة من الله

---

(١) ٢٦٨ : سورة البقرة .

والحلم من الشيطان فإذا حلم أحدكم حلماً يخافه فليبصق عن يساره وليتعوذ بالله من شرها فانها لا تضره » ا . هـ . [١] :

وقال تعالى : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير ﴾ [٢] . وقال : ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد . لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب وحوراً ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب ﴾ [٣] .

وقال البخاري حدثنا الحميدي حدثنا سفيان حدثنا عمرو قال : سمعت عكرمة يقول سمعت أبا هريرة يقول إن نبي الله ﷺ قال : « إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة باجنحتها خضعاناً لقوله وكأنه سلسلة على صفوان » . فاذا فرغ عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا للذي قال : الحق وهو العلي الكبير . فيسمعها مسترق السمع . ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض - ووصف سفيان بكفه فحرقها وبدد بين أصابعه . فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها وربما القاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا . فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء » ا . هـ . وانفرد به البخاري .

* * *

وقال تعالى : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين . وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون انهم مهتدون . حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴾ [٤] .

---

(١) تعبر الرؤيا الصالحة بالرؤيا . . وغيرها بالحلم . . وقد يستعمل الحلم بدلاً منها . . ولكن للرؤيا الصالحة شروط وضوابط لا بد من تحققها . . راجع تفسير الأحلام للمحقق . . « المقدمة » .

(٢) ٥ : سورة الملك .

(٣) ٧ : سورة الصافات .

(٤) ٣٦ : الزخرف .

وقال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الانس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً . ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون . ولتصغي إليه افئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون ﴾ (١) .

وقد قدمنا في صفة الملائكة ما رواه أحمد ومسلم من طريق منصور عن سالم عن أبي الجعد عن أبيه واسمه رافع عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا واياك يا رسول الله قال واياي ولكن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير .

وقال الامام أحمد : حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا ابن لهيعة عن موسى بن وردان عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « ان المؤمن لينصى شيطانه كما ينصى أحدكم بعيره في السفر » ا . هـ . تفرد به أحمد من هذا الوجه ، ومعنى لينصى شيطانه ليأخذ بناصيته فيغلبه ويقهره كما يفعل بالبعير إذا شردتم غلبه .

وقوله تعالى اخباراً عن ابليس ﴿ قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ (٢) .

قال الامام أحمد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا ابو عقيل ـ هو عبد الله بن عقيل الثقفي (٣) حدثنا موسى بن المسيب عن سالم بن أبي الجعد عن سبرة بن أبي فاكه قال : سمعت رسول الله ﷺ قال : « إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقة فقعد له بطريق الاسلام فقال أتسلم وتذر دينك ودين آبائك . قال فعصاه وأسلم قال وقعد له بطريق الهجرة فقال أتهاجر وتذر ارضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول فعصاه وهاجر . ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهاد النفس والمال فقال اتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسمه المال قال فعصاه وجاهد »

---

(١) ١١٢ : سورة الأنعام .
(٢) ١٧ : سورة الأعراف .
(٣) عبد الله بن عقيل الثقفي .

قال رسول الله ﷺ « فمن فعل ذلك منهم كـان حقاً عـلى الله أن يدخله الجنـة . وان قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، وان كان فرق كان حقاً عـلى الله أن يدخله الجنة وان وقصته [١] دابته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة » ا . هـ .

وقـال الامام أحمـد حدثنـا وكيع حـدثنا عبـادة بن مسلم الغزاوي حـدثني جبير بن أبي سليمان بـن جبير بن مطعم سمعت عبد الله بن عمر يقول : لم يكن رسول الله ﷺ يدع هذه الدعوات حين يصبح وحين يمسي « اللهم اني أسألـك العافية في الدنيا والآخرة اللهم إني أسألك العفو والعـافية في ديني ودنياي وأهلي ومـالي ، اللهم استر عـورتي وآمن روعاتي ، اللهم أحفـظني من بـين يـدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمـالي ومن فوقي وأعـوذ بعظمتـك أن اغتـال من تحتي » ا . هـ . قـال وكيع يعني الخسف ، ورواه أبـو داود والنسائي وابن مـاجـه وابن حبان والحاكم من حديث عبادة بن مسلم به ، وقال الحاكم صحيح الاسناد .

* * *

---

(١) وقصته : أي رفصته برجلها .

خلق الجان وقصة الشيطان

قال الله تعالى : ﴿ واذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الاسماء كلها . ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم باسمائهم فلما أنبأهم باسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس . أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغداً حيث شئتما . ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو . ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم . قلنا أهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى . فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (١) .

---

(١) ٣٠ : ٣٩ : سورة البقرة .

وقال تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون ، والجان خلقناه من قبل من نار السمـ م . واذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون من الساجدين . قال يا أبليس مالك أن لا تكون مع الساجدين . قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون . قال : أخرج منها فإنك رجيم . وان عليك اللعنة إلى يوم الدين . قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم . قال رب بما أغويتني لأزين لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين . لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ (٤) .

* * *

فأخبر تعالى أنه خاطب الملائكة قائلاً لهم : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ (٥) أعلم بما يريد أن يخلق من آدم وذريته الذين يخلف بعضهم بعضاً

---

(١) ٥٩ : سورة آل عمران .
(٢) ١ : سورة النساء .
(٣) ٥٥ : سورة طه .
(٤) ٢٦ ـ ٤٤ : سورة الحجر .
(٥) ٣٠ : سورة البقرة .

كما قال : ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف ﴾ [1] الأرض فأخبرهم بذلك على سبيل التنويه بخلق آدم وذريته كما يخبر بالأمر العظيم قبل كونه فقالت الملائكة سائلين على وجه الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحكمة لا على وجه الاعتراض والتنقص لبني آدم والحسد لهم كما قد يتوهمه بعض جهلة المفسرين . قالوا « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » [2] قيل علموا أن ذلك كائن بما رأو ممن كان قبل آدم من الجن والبن . . قاله قتادة .

وقال عبد الله بن عمر كانت الجن قبل آدم بألفي عام فسفكوا الدماء فبعث الله اليهم جنداً من الملائكة فطردوهم الى جزائر البحور ، وعن ابن عباس نحوه او عن الحسن ألهموا ذلك ، وقيل لما أطلعوا عليه من اللوح المحفوظ فقيل أطلعهم عليه هاروت وماروت عن ملك فوقهما يقال له الشجل . رواه ابن أبي حاتم عن أبي جعفر الباقر .

وقيل لأنهم علموا أن الأرض لا يخلق منها إلا من يكون بهذه المثابة غالباً ﴿ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ [3] أي نعبدك دائماً لا يعصيك منا أحد ، فان كان المراد بخلق هؤلاء أن يعبدوك فها نحن لا نفتر ليلاً ولا نهاراً ﴿ قل إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ [4] . أي أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هؤلاء ما لا تعلمون أي سيوجد منهم الانبياء والمرسلون والصديقون والشهداء ثم بين لهم شرف آدم عليهم في العلم فقال : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ [5] . قال ابن عباس : هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس إنسان ودابة وأرض وسهل وبحر وجبل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها . وفي رواية علمه اسم

---

(١) ٣٩ : سورة فاطر .
(٢) ٣٠ : سورة البقرة .
(٣) ٣٠ : سورة البقرة .
(٤) ٣٠ : سورة البقرة .
(٥) ٣١ : سورة البقرة .

الصحفة والقدر حتى الفسوة والفسية [١] ، وقال مجاهد علمه اسم كل دابة وكل طير وكل شيء .

﴿ ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني باسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾ [٢] قال الحسن البصري « ولما أراد الله خلق آدم قالت الملائكة لا يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أعلم منه فابتلوا بهذا » [٣] وذلك قوله : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ [٤] وقيل غير ذلك كما بسطنا في التفسير [٥] قالوا : « سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم » [٦] أي سبحانك أن يحيط أحد بشيء ومن علمك من غير تعليمك كما قال : ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ [٧] ﴿ قال يا آدم أنبئهم باسمائهم فلما أنبأهم باسمائهم قال ألم أقل لكم اني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ [٨] أي أعلم السر كما أعلم العلانية . وقيل إن المراد بقوله واعلم ما تبدون ما قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ، وبقوله ﴿ وما كنتم تكتمون ﴾ المراد بهذا الكلام ابليس حين أسر الكبر على آدم عليه السلام . قاله سعيد بن جبير ومجاهد والسدي والضحاك والثوري واختاره ابن جرير . وقال أبو العالية والربيع والحسن وقتادة « وما كنتم تكتمون » قولهم لن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أعلم منه واكرم عليه منه .

قوله : ﴿ واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر ﴾ [٩] هذا إكرام عظيم من الله تعالى لآدم حين خلقه بيده ونفخ فيه

---

(١) قال في المصباح (فسا : : « فسواً » من باب قتل والاسم « الفُسَاء » وهو ريح يخرج بغير صوت يسمع) ا . هـ .

(٢) ٣١ : سورة البقرة .

(٣) ذلك لعلمهم بايمانهم وعبادتهم وقربهم من الله جل في علاه .

(٤) ٣١ : سورة البقرة .

(٥) في تفسير الآيات من ٣١ : ٣٣ ص ٧٢ ط الحلبي بالقاهرة .

(٦) ٣٢ : سورة البقرة .

(٧) ٢٥٥ : سورة البقرة .

(٨) ٣٣ : سورة البقرة .

(٩) ٣٤ : سورة البقرة .

من روحــه كـما قــال : ﴿ فــإذا ســويت ونفخت فيــه من روحي فقعــوا لــه ساجدين ﴾[1] . . .

فهذه أربع تشريفات : خَلقُـه له بيـده الكريمـة ، ونفخه فيـه من روحه . -وأمره الملائكة بالسجود له وتعليمه اسماء الأشياء . . ولهذا قـال له مـوسى الكليم حين اجتمـع هو وايـاه في الملأ الأعلى وتنـاظرا كمـا سيـأتي : « أنت آدم أبـو البشر الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لـك ملائكتـه وعلمك أسماء كل شيء . وهكذا يقول أهل المحشر يوم القيامة . .

وقال في الآية الأخـرى ﴿ ولقد خلقنـاكم ثم صورنـاكم ثم قلنا للمـلائكة اسجـدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس لم يكن من الســاجدين قـال مـا منعـك أن لا تسجد إذ أمرتك قال أنـا خير منـه خلقتني من نار وخلقتـه من طين ﴾ [2] قـال الحسن البصري : قاس ابليس وهو أول من قاس . وقال محمد بن سيـرين أول من قاس ابليس وما عبدت الشمس ولا القمر إلا بالمقاييس . . رواهما ابن جرير ومعنى هذا أنه نظر نفسه بطريق المقايسة بينه وبين آدم فرأى نفسه أشرف من آدم فامتنع من السجود له مع وجود الأمر له ولسائر الملائكة بالسجود .

والقياس إذا كان مقابلاً بالنص كان فاسد الاعتبار ، ثم هو فاسد في نفسه فإن إلطين أنفع وخير من النار فإن الـطين فيه الـرزانة والحلم والنمـو والنار فيهـا الطيش والخفة والسرعة والاحراق ، ثم آدم شرفه الله بخلقه لـه بيده ونفخـه فيه من روحه ، ولهذا أمر الملائكة بالسجود له . كما قال « إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصـال من حمأ مسنـون ، فإذا ســويته ونفخت فيـه من روحي فقعـوا له سـاجدين . فسجـد المـلائكـة أجمعـون . إلا ابليس أبى أن يكـون من السـاجدين . قـال يا أبليس مـالك أن لا تكـون من السـاجـدين . قـال لم أكن لأسجـد لبشر خلقتـه من صلصال من حمـأ مسنون . قـال فاخـرج منهـا فـإنـك رجيم . وإنك عليك اللعنة إلى يوم الدين » [3] استحق هذا من الله تعـالى لأنه

---

(١) ٣٢ : سورة الحجر .
(٢) ١٢ : سورة الأعراف .
(٣) ٢٨ ـ ٣٥ : سورة الحجر .

استلزم تنقصه لآدم وازدراؤه به وترفعه عليه مخالفة الأمر الآلهي ومعاندة الحق في النص على آدم على التعيين وشرع في الاعتذار بما لا يجدي عنه شيئاً . وكان اعتذاره أشد من ذنبه كما قال تعالى في سورة سبحانه ﴿ واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً . . ﴾ [1] الآيات .

قال الحسن البصري . لم يكن ابليس من الملائكة طرفة عين قط ، وقال شهر بن حوشب . كان من الجن فلما أفسدوا في الأرض بعث الله إليهم جنداً من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم إلى جزائر البحار وكان إبليس ممن أسر فأخذوه معهم إلى السماء فكان هناك . فلما أمرت الملائكة بالسجود امتنع إبليس عنه .

وقال ابن مسعود وابن عباس وجماعة من الصحابة وسعيد بن المسيب وآخرون . كان ابليس رئيس الملائكة بالسماء الدنيا . قال ابن عباس وكان اسمه عزازيل . وقرأ رواية عن الحارث قال النقاش وكنيته « أبو كردوس » قال ابن عباس : وكان من حي من الملائكة يقال لهم الجن وكانوا خزان الجنان وكان من أشرفهم وأكثرهم علماً وعبادة وكان من أولى الأجنحة الأربعة فمسخه الله شيطاناً رجيماً .

* * *

وقد اختلف المفسرون في الملائكة المأمورين بالسجود لآدم . أهم جميع الملائكة كما دل عليه عموم الآيات وهو قول الجمهور . أو المراد بهم ملائكة الأرض . كما رواه ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس . وفيه انقطاع . وفي السياق نكارة وان كان بعض المتأخرين قد رجحه ولكن إلا ظهر من السياقات الأول ويدل محله الحديث وأسجد له ملائكته وهذا عموم أيضاً والله أعلم .

وقوله تعالى لابليس ﴿ اهبط منها ﴾ و ﴿ اخرج منها ﴾ دليل على أنه كان في السماء فأمر بالهبوط منها والخروج من المنزلة والمكانة التي كان قد نالها بعبادته

(١) ٦١ : سورة الإسراء .

وتشبهه بالملائكة في الطاعة والعبادة ثم سلب ذلك بكبره وحسده ومخالفته لربه فأهبط إلى الأرض مذموماً مدحوراً . وأمر الله آدم عليه السلام أن يسكن هو وزوجته الجنة فحدث فيها ما حدث . .

* * *

وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى : ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ (١) فقيل هي الكرم ، وروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير والشعبي وجعدة بن هبيرة ومحمد بن قيس والسدي في رواية عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة قال : وتزعم يهود أنها الحنظة . وهذا مروي عن ابن عباس والحسن البصري ووهب بن منبه وعطية العوفي وأبي مالك ومحارب بن وثار وعبد الرحمن بن أبي ليلى . . قال وهب والحبة منه ألين من الزبد وأحلى من العسل ، وقال الثوري عن أبي حصين عن أبي مالك ولا تقربا هذه الشجرة هي النخلة ، وقال ابن جريج عن مجاهد هي التينة وبه قال قتادة وابن جريج وقال أبو العالية كانت شجرة من أكل منها أحدث ولا ينبغي في الجنة حدث .

وهذا الخلاف قريب وقد أبهم الله ذكرها وتعيينها ، ولو كان في ذكرها مصلحة تعود إلينا لعينها لنا كما في غيرها من المحال التي تبهم في القرآن .

وانما الخلاف الذي ذكروه في أن هذه الجنة التي دخلها آدم هي في السماء أو في الأرض هو الخلاف الذي ينبغي فصله والخروج منه ، والجمهور على انها هي التي في السماء وهي جنة المأوى لظاهر الآيات والاحاديث كقوله تعالى : ﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ (٢) والألف واللام ليست للعموم ولا لمعهود لفظي وانما تعود على مفهوم ذهني وهو المستقر شرعاً من جنة المأوى وكقول موسى عليه السلام لآدم عليه السلام « علام أخرجتنا ونفسك من الجنة » (٣) الحديث .

---

(١) ٣٥ : سورة البقرة .

(٢) السابقة .

(٣) أفضل ما كتب في هذه المسألة ما كتبه ابن القيم في حادي الأرواح وهي ابواب طويلة فليرجع إليها من يشاء . . وقد اثبتنا بعض كلامه ها هنا وسيأتي .

وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي مالك الاشجعي واسمه سعد بن طارق عن أبي حازم سلمة بن دنيا وعن أبي هريرة ، وأبو مالك عن ربعي عن حذيفة قالا قال رسول الله ﷺ: « يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم ا . هـ . وذكر الحديث بطوله . وهذا فيه قوة جيدة ظاهرة في الدلالة على أنها جنة المأوى وليست تخلو من نظر .

وقال آخرون بل الجنة التي اسكنها آدم لم تكن جنة الخلد لأنه كلف فيها ان لا يأكل من تلك الشجرة ولأنه نام فيها وأخرج منها ودخل عليه ابليس فيها وهذا مما ينافي أن تكون جنة المأوى . وهذا القول محكي عن أبي بن كعب وعبد الله بن عباس ووهب بن منبه وسفيان بن عيينه واختاره ابن قتيبة في المعارف والقاضي منذر بن سعيد البلوطي في تفسيره عن المعتزلة والقدرية وهذا القول هو نص التوراة التي بأيدي أهل الكتاب ، وممن حكى الخلاف في هذه أبو محمد بن حزم في الملل والنحل وأبو محمد بن عطية في تفسيره وأبو عيسى الرماني في تفسيره [1] .

* * *

(١) رد ابن القيم رداً طويلاً وناقش نقاشاً طيباً في هذه المسألة وذلك في كتابه « حادي الأرواح » يقول « قد وصف الله سبحانه جنة آدم بصفات لا تكون إلا في الجنة فقال « إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى » وهذا لا يكون في الدنيا أصلاً ، فإن الرجل ولو كان في أطيب منازل لا بد أن يعرض له شيء من ذلك ، وقابل سبحانه بين الجوع والظمأ ، والعرى والضحى ، فإن الجوع ذل الباطن ، والعري ذل الظاهر ، والظمأ حر الظاهر والباطن ، وذلك أحسن من المقابلة بين الجوع والعطش ، والعري والضحى ، وهذا شأن ساكن جنة المأوى » ا . هـ .

كذلك فلو كانت تلك الجنة في الدنيا لعلم آدم كذب ابليس في قوله « هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » فإن آدم كان يعلم أن الدنيا منقضية فانية ، وان ملكها يبلى .

وكذلك فإن الجنة معرفة بلام التعريف في جميع المواضع كقوله تعالى : ﴿ اسكنه أنت وزوجك الجنة ﴾ ونظائره ولا جنة يعهدها المخاطبون ويعرفونها إلا جنة الخلد التي وعد الرحمن عباده بالغيب فقد صار هذا الأسم علماً عليها بالغلبة كالمدينة والنجم والبيت والكتاب ونظائرها ، فحيث ورد لفظها معرفاً انصرف إلى الجنة المعهودة المعلومة في قلوب المؤمنين ، واما ان أريد به جنة غيرها فإنها تجيء منكرة أو مقيدة بالاضافة ، أو مقيدة من السياق بما يدل على أنها جنة في الأرض .

=

قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين بن شكاب حدثنا علي بن عاصم عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ « قال آدم عليه السلام : أرأيت يا رب ان تبت ورجعت أعائدي إلى الجنة قال نعم » فذلك قوله ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ﴾ (١) . وهذا غريب من هذا الوجه وفيه انقطاع .

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد قال الكلمات « اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي انك خير الغافرين . اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي انك خير الراحمين ، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب اني ظلمت نفسي فتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم » ا . هـ .

* * *

وروى الحاكم في مستدركه عن طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ﴾ (٢) . قال : قال آدم يا رب ألم تخلقني بيدك . قيل له بلى . ونفخت فيَّ من روحك قيل له بلى وعطست فقلت يرحمك الله وسبقت رحمتك غضبك قيل له بلى وكتبت عليَّ أن أعمل هذا ـ قيل له بلى .

= فالأول كقوله « جنتين من أعناب »

والثاني كقوله « ولولا إذ دخلت جنتك » .

والثالث كقوله « إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة » .

(١) ٣٧ : سورة البقرة .

ـ قال ابن كثير في التفسير (٨١) ط الحلبي بالقاهرة : « ومن الكلمات أيضاً ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكون من الخاسرين » .

وقد قال قبلها « قيل إن هذه الكلمات مفسرة بقوله تعالى : ﴿ قالا ربنا ظلمنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ . .

وروي عن مجاهد وسعيد بن جبير وأبي العالية والربيع بن أنس والحسن وقتادة ومحمد بن كعب القرظي وخالد بن معدان وعطاء الخراساني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقال أبو أسحاق السبيعي عن رجل من بني تميم قال : أتيت ابن عباس فسألته ما الكلمات التي تلقى آدم من ربه ؟ قال علم شأن الحج وقال سفيان الثوري عن عبد العزيز بن رفيع أخبرني من سمع عبيد بن عمير . .

(٢) ٣٧ : سورة البقرة .

قال أفرأيت ان تبت هل أنت راجعي إلى الجنة . قال نعم » ا . هـ . ثم قال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه .

وروى الحاكم أيضاً والبيهقي وابن عساكر من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : « لما اقترف آدم الخطيئة فقال يا رب أسألك بحق محمد أن غفرت لي فقال الله فكيف عرفت محمداً ولم أخلقه بعد فقال يا رب لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت فيّ من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلا الله محمد رسول الله فعلمت انك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك فقال الله صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إليّ واذا سألتني بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك » ا . هـ . قال البيهقي تفرد به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم من هذا الوجه وهو ضعيف . . والله أعلم . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ (١) .

* * *

أحاديث واردة في خلق آدم عليه السلام

قال الامام أحمد حدثنا يحيى ومحمد بن جعفر حدثنا عوف حدثني قسامة بن زهير عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك . والخبيث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك » ا . هـ .

ورواه أيضاً عن هوذة عن عوف عن قسامة بن زهير سمعت الاشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك . والخبيث والطيب وبين ذلك » ا . هـ . وكذا رواه أبو داود والترمذي وابن حبان في صحيحه من حديث عوف بن أبي جميلة الأعرابي عن قسامة بن

(١) ١٢٢ : سورة طه .

زهير المازني البصري عن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري عن النبي ﷺ بنحوه . وقال الترمذي حسن صحيح (١)

وقد ذكر السدي عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : « فبعث الله عز وجل جبريل في الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض أعوذ بالله منك ان تنقص مني أو تشينني فرجع ولم يأخذ وقال رب انها عاذت بك فأعذتها فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها فرجع فقال كما قال جبريل فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره فأخذ من وجه الأرض وخلطه ولم يأخذ من مكان واحد وأخذ من تربة بيضاء وحمراء وسوداء فلذلك خرج بنو آدم مختلفين فصعد به قبل التراب حتى عاد طيناً لازباً » . واللازب هو الذي يتماسك (٢) بعضه ببعض ، ثم قال للملائكة ﴿ إني خالق بشراً من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ (٣) فخلقه الله بيده لئلا يتكبر إبليس عنه فخلقه بشراً فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم

---

(١) وقد يتساءل متسائل عن الحكمة الإلهية التي جعلت من الطين الذي تغيرت رائحته فصارت كريهة كما وصفها الله تعالى بأنها « حمأ مسنون » شيئاً أفضل من النور ، ومن النار اللذين لا يعتريهما هذا الفساد ولا ذلك التغيير . !؟!

نعم . . فمن العسير أن يقتنع الانسان أن الطين خير من النور حتى أسجد الله الملائكة وهم من النور لآدم وهو من الطين ، ومن العسير أن يقتنع الانسان بأن الطين خير من النار حتى لعن إبليس وهو من النار بسبب آدم وهو من الطين . . لا بد أن هناك امتيازات عظمى هي التي جعلت من آدم سيد الخلق وسيد الأرض .

وأول الأسرار هذه : أن كل ما تعارف الناس على وصفه بأنه مستعذر مما تعافه النفوس كالجيف والفضول مما تخلف عن الانسان أو الحيوان أو النبات ، فإنه يبلى ويتحول في داخل الطين إلى مصدر من مصادر النماء ، تقوى به الأرض على الانبات ، ويزكون به الشجر والثمر ، ويزداد الناس خيراً في معاشهم وأموالهم ، ولا كذلك النار التي تأتي على كل شيء فتهلكه ، ولا تدعه صالحاً للشيء . . وهكذا الايمان في قلب الانسان يحول كل الآلام والمصائب إلى نعم ، والى مصادر لليقين بالله ، وإلى قوى دافعة الى العمل في شعب الايمان ، وأخلاق فكما تحولت المظاهر غير المستحية الظاهر إلى مصدر نماء مادي تتحول الأمور غير المستحية في المعنى إلى مصادر نماء معنوي ، وسبحان العليم فوق عباده .

(٢) في الأصل « يلزق » وما أوردناه أفضل .

(٣) ٢٩ : سورة الحجر .

الجمعة فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه وكان أشدهم منه فزعاً ابليس فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت (١) الفخار يكون له صلصلة فذلك حين يقول ﴿ من صلصال كالفخار ﴾ (٢) ويقول لأمر ما خلقت ودخل من فيه وخرج من دبره وقال للملائكة لا ترهبوا من هذا فإن ربكم وهذا أجوف ما سلطت عليه لأهلكته فلما بلغ الحين الذي يريد الله عز وجل أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له ، فلما نفخ فيه الروح إلى رجله عملان إلى ثمار الجنة وذلك حين يقول الله تعالى : ﴿ خلق الانسان من عجل ﴾ (٣) « فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا ابليس أبى أن يكون من الساجدين » (٤) وذكر تمام القصة ولبعض هذا السياق شاهد من الأحاديث وان كان كثير منه متلقى من الاسرائيات . . فقال الامام أحمد : حدثنا عبد الصمد حدثنا حماد عن ثابت عن أنس أن النبي ﷺ قال : « لما خلق الله آدم تركه ما شاء أن يدعه فجعل ابليس يطيف به فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك » ا . هـ . وقال ابن حبان في صحيحه حدثنا الحسن بن سفيان حدثنا هدبة بن خالد حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « لما نفخ في آدم فبلغ الروح رأسه عطس فقال الحمد لله رب العالمين فقال له تبارك وتعالى يرحمك الله » .

* * *

وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا يحيى بن محمد بن السكن حدثنا حبان بن هلال حدثنا مبارك بن فضالة عن عبيد الله عن حبيب عن حفص هو ابن عاصم بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب عن أبي هريرة رفعه قال : « لما خلق الله آدم عطس فقال الحمد لله فقال له ربه رحمك ربك يا آدم » ا . هـ . وهذا الاسناد لا بأس به ولم يخرجوه ..

وقال عمر بن عبد العزيز « لما أمرت الملائكة بالسجود كان أول من سجد

---

(١)، أي يخرج صوتاً .
(٢) ١٤ : الرحمن .
(٣) ٣٧ : سورة الأنبياء .
(٤) ٣١ : سورة الحجر .

منهم اسرافيل فآتاه الله أن كتب القرآن في جبهته » رواه ابن عساكر وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا عقبة بن مكرم حدثنا عمرو بن محمد عن اسماعيل بن رافع عن المقبري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله خلق آدم من تراب ثم جعله طيناً ثم تركه حتى إذا كان حمأ مسنوناً خلقه وصوره ثم تركه حتى إذا كان صلصالاً كالفخار قال فكان ابليس يمر به فيقول لقد خلقت لأمر عظيم . ثم نفخ الله فيه من روحه فكان أول ما جرى فيه الروح بصره وخياشيمه فعطس فلقاه الله رحمة به فقال الله يرحمك الله . ثم قال الله يا آدم اذهب إلى هؤلاء فقل لهم « السلام عليكم » (١) فانظر ماذا يقولون فجاء فسلم عليهم فقالوا وعليك السلام ورحمة الله وبركاته .

فقال يا آدم هذا تحيتك وتحية ذريتك . قال يا ربَ وما ذريتي قال اختر يدي يا آدم قال اختار يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين وبسط كفه فإذا من هو كائن من ذريته في كف الرحمن فإذا رجال منهم أفواههم النور فاذا رجل يعجب آدم نوره قال يا رب من هذا قال ابنك داود قال يا رب فكم جعلت له من العمر قال : جعلت له ستين قال يا رب فاتم له من عمري حتى يكون له من العمر مائة سنة ففعل الله ذلك وأشهد على ذلك فلما نفذ عمر آدم بعث الله ملك الموت فقال آدم أو لم يبق من عمري أربعون سنة قال له الملك أو لم تعطها ابنك داود فجحد ذلك ، فجحدت ذريته ، ونسي فنسيت ذريته » ا . هـ .

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار والترمذي والنسائي في اليوم والليلة من حديث صفوان بن عيسى عن الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ .

وقال الترمذي : « حديث حسن غريب من هذا الوجه » ، وقال النسائي : « هذا حديث منكر » وقد رواه محمد بن عجلان من سعيد المقبري عن أبيه عن عبد الله بن سلام .

وقال الترمذي : حدثنا عبيد بن حميد (٢) حدثنا أبو نعيم حدثنا هشام بن

---

(١) السلام عليكم ساقطة من الأصول وقد أوردناها في موضعها .

(٢) في الأصل عبد بن حميد وما أوردناه الصحيح .

سعد عن زيد بن أسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة وجعل بين عيني كل انسان منهم وبيصا [1] من نور ثم عرضهم على آدم فقال : أي ربي من هؤلاء قال هؤلاء ذريتك فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال أي رب من هذا قال هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود قال رب وكم جعلت عمره قال ستين سنة ، قال أي رب زده من عمري أربعين سنة ، فلما أنقصى عمر آدم جاءه ملك الموت قال : أو لم يبقى من عمري أربعون سنة قال : أو لم تعطها ابنك داود قال فجحد فجحدت ذريته ، ونسي آدم فنسيت ذريته ، وخطأ آدم فخطأت ذريته » ا . هـ . ثم قال الترمذي : حسن صحيح وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ - ورواه الحاكم في مستدركه من حديث أبي نعيم الفضل بن دكين وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

وروى ابن أبي حاتم من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة مرفوعاً فذكره وفيه « ثم عرضهم على آدم فقال يا آدم هؤلاء ذريتك وإذا فيهم الاجذم والأبرص والأعمى وأنواع الاسقام فقال آدم يا رب : لما فعلت ذلك بذريتي قال كي تشكر نعمتي » . . ثم ذكر قصة داود .

* * *

وقد قال البخاري حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر بن منبه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً . ثم قال اذهب فسلم على أولئك من الملائكة واستمع ما يجيبونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك فقال السلام عليكم فقالوا السلام عليك ورحمة الله فزادوه ورحمة الله فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن . . ا . هـ . وهكذا رواه البخاري في كتاب الاستئذان عن يحيى بن جعفر

---

(١) الوبيص : مثل البريق وزناً ومعنى وهو اللمعان يقال وبص وبيصاً ، والفاعل وابص ووابصة وبه سمي . . كذا قال في القاموس .

ومسلم عن محمد بن رافع كلاهما عن عبد الرزاق به .

وقال الامام أحمد : حدثنا روح حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كان طول آدم ستين ذراعاً في سبع أذرع عرضاً » ا . هـ . أنفرد به أحمد .

وقال الامام أحمد : حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال « لما نزلت آية الدين قال رسول الله ﷺ : « إن أول من جحد آدم . . إن أول من جحد آدم . . إن أول من جحد آدم . . إن الله لما خلق آدم ومسح ظهره فأخرج منه ما هو ذاري إلى يوم القيامة فجعل يعرض ذريته عليه فرأى فيهم رجلاً يزهر قال أي رب من هذا قال هذا داود قال أي رب كم عمره قال ستون عاماً قال أي رب زد في عمره قال : لا إلى أن أزيده من عمرك وكان عمر آدم ألف عام فزاده أربعين عاماً . فكتب الله عليه بذلك كتاباً وأشهد محله الملائكة فلما احتضر آدم اتته الملائكة لقبضه قال إنه قد بقي من عمري أربعون عاماً . فقيل له إنك قد وهبتها لابنك داود . قال ما فعلت وابرز الله عليه الكتاب وشهدت عليه الملائكة » ا . هـ .

وقال الامام مالك بن أنس في موطئه عن زيد بن أبي أنيسه أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أخبره عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿ واذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم الست بربكم قالوا بلى ﴾ (١) الآية . فقال عمر بن الخطاب سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها فقال : « ان الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريته قال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون . فقال رجل يا رسول الله ففيم العمل قال رسول الله ﷺ إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخل به الجنة وإذا خلق الله العبد

---

(١) ١٧٢ : سورة الأعراف .

للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار » ا . هـ .

وهكذا رواه الامام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو حاتم بن حبان في صحيحه من طرق عن الامام مالك به ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن ، ومسلم بن يسار لم يسمع عمر ، وكذا قال أبو حاتم وأبو زرعة وبينهما نعيم بن ربيعة ، وقد رواه أبو داود عن محمد بن مصفى عن بقية عن عمر بن جثعم عن زيد بن أبي أنيسه عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب بن مسلم بن يسار عن نعيم بن ربيعة قال : كنت عند عمر بن الخطاب وقد سئل عن هذه الآية فذكر الحديث . قال الحافظ الدارقطني : وقد تابع عمر بن جثعم أبو فروة بن يزيد بن سنان الرهاوي عن زيد بن أبي أنيسة قال وقولهما أولى بالصواب من قول مالك رحمه الله .

وهذه الأحاديث كلها دالة على استخراجه تعالى ذرية آدم من ظهره كالذر وقسمتهم قسمين أهل اليمين وأهل الشمال وقال هؤلاء للجنة ولا أبالي وهؤلاء للنار ولا أبالي . فأما الاشهاد عليهمواستنطاقهم بالاقرار بالوحدانية فلم يجىء في الأحاديث الثابتة . وتفسير الآية التي في سورة الأعراف وحملها على هذا فيه نظر كما بيناه هناك ، وذكرنا الأحاديث والآثار مستقصاه باسانيدها وألفاظ متونها . فمن اراد تحريره فليراجعه ثم والله أعلم .

* * *

وقد قال الامام أحمد حدثنا وكيع . ويعلي ومحمد ابنا عبيد قالوا حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد له الجنة وأمرت بالسجود فعصيت فله النار » ا . هـ .

ورواه مسلم من حديث وكيع وأبي معاوية عن الأعمش به .

* * *

ثم لما أسكن آدم بالجنة التي أسكنها سواء كانت في السماء أو في الأرض على ما تقدم من الخلاق فيه أقام بها هو وزوجته حواء عليهما السلام يأكلان منها رغداً حيث شاءا فلما أكلا من الشجرة التي نهيا عنها سلبا ما كان فيه من اللباس وأهبطا إلى الأرض .

* *

واختلفوا في مقدار مقامه في الجنة فقيل بعض يوم من أيام الدنيا ، فقيل يوم الجمعة ، وقيل آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة .

وفي هذا نظر وان كان اخراجه في غير اليوم الذي خلق فيه أو قلنا بأن تلك الأيام مقدارها ستة آلاف سنة كما ورد عن ابن عباس ومجاهد الضحاك واختاره ابن جرير فقد لبث هناك مدة طويلة . قال ابن جرير ومعلوم أنه خلق في آخر ساعة من يوم الجمعة والساعة منذ ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر فمكث مصوراً طيناً قبل أن ينفخ فيه الروح أربعين سنة وأقام في الجنة قبل أن يهبط ثلاثاً وأربعين سنة وأربعة أشهر . . والله تعالى أعلم .

وقد روى عبد الرزاق عن هشام بن حسان عن سوار خبر عطاء بن أبي رباح أنه كان لما أهبط رجلاه في الأرض ورأسه في السماء فحطه الله إلى ستين ذراعاً . . وقد روي عن ابن عباس نحوه . وفي هذا نظر لما تقدم من الحديث المتفق على صحته عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله خلق آدم وطوله ستين ذراعاً فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن . وهذا يقتضي أنه خلق كذلك لا أطول من ستين ذراعاً وأن ذريته لم يزالوا يتناقص خلقهم حتى الآن .

وذكر ابن جرير عن ابن عباس إن الله قال : ﴿ يا آدم إن لي حرماً بجبال عرش فانطلق فابن لي فيه بيتاً تطف به كما تطوف ملائكتي بعرشي وأرسل الله له ملكاً فعرفه مكانه وعلمه المناسك . وذكر أن موضع كل خطوة خطاها آدم صارت قرية بعد ذلك .

وعنه أن أول طعام أكله آدم في الأرض أن جاءه جبريل حبات من

حنطة [1] فقال ما هذا قال هذا من الشجـرة التي نهيت عنها فـأكلت منها فقـال وما أصنع بهذا قال ابذره في الأرض فبذره وكان كل حبة منها زنتها من مائة ألف فنبتت فحصـده ثم درسه ثم ذراه ثم طحنـه ثم عجنه ثم خبـزه فأكله بعـد جهد عـظيم وتعب ونكـد وذلـك قـولـه تعـالى : ﴿ فـلا يخـرجنكـما من الجنـة فتشقى ﴾ [2] .

وكـأن أول كسوتهما من شعر الضـأن جزاه ثم غـزلاه فنسـج آدم لـه جبـه ولحواء درعاً وخماراً .

وأختلفوا أهل ولد لهما بالجنة شيء من الأولاد فقيـل لم يـولـد لهـما إلا في الأرض ، وقيل بل ولد لهما فيها فكان قابيل وأخته ممن ولد بها والله أعلم .

وذكروا أنه كان يولـد له في كـل بطن ذكـر وأنثى وأمر أن يـزوج كل ابن أخت اخته التي ولدت معـه والآخـر بـالأخـرى وهلم جـراً ولم يكن تحـل أخت لأخيها التي ولدت معه .

* * *

(تم بحمد الله)

(١) الحنطة : قال في القاموس « الحنطة والقمح والبر والطعام واحد وبائع الحنـطة حناط مثـل البزار والعـطار والنسبة إليـه على لفـظه « حناطي » وهي نسبـة لبعض أصحابنـا » ا . هـ . وقيـل هي القمح وقيل هي الزيتون وقيل غير ذلك . . والله أعلم .

(٢) ١١٧ : سورة طه .

أهم مراجع التحقيق

١ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ محمد فؤاد عبد الباقي ـ ط مؤسسة جمال ـ بيروت .

٢ ـ كتب السنة والمسانيد .

٣ ـ معجم البلدان ـ لياقوت الحموي . ط دار صادر بيروت .

٤ ـ تفسير ابن كثير ـ ط الحلبي بالقاهرة .

٥ ـ معجم ما استعجم من البلاد والمواضع ـ لأبي عبيد الاندلس ـ تحقيق / مصطفى السقاط مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر مصر سنة ١٣٦٦ هـ .

٦ ـ ازهار الرياض في أخبار عياض ـ لشهاب الدين المغربي التلمساني تحقيق مصطفى السقا ، ابراهيم الابياري ، عبد الحفيظ شلبي ط مطبعة لجنة التأليف والترجمة بمصر سنة ١٣٥٨ هـ .

٧ ـ تاريخ المملكة العربية السعودية ـ تأليف دكتور حسن سليمان محمود ، وسيد محمد ابراهيم نشر مكتبة مصر .

٨ ـ نهر النيل في المكتبة العربية ـ محمد حمدي الميناوي ـ الدار القومية بمصر سنة ١٣٨٦ هـ .

٩ ـ امبراطورية البرنو الاسلامية ـ ابراهيم علي طرخان ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

١٠ ـ القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم . موريس بوكاي ـ ط دار المعلوف بمصر .

١١ ـ التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن ـ حنفي أحمد ـ دار المعارف .

١٢ ـ الاسلام وتقربة داوين ـ محمد أحمد باشميل ـ ط المؤلف .

١٣ ـ عقائد المفكرين في القرن العشرين ـ للعقاد ط الانجلو المصرية .

١٤ ـ المصباح المنير .

١٥ ـ مختار الصحاح .

١٦ ـ اساس البلاغة .

الفهرس